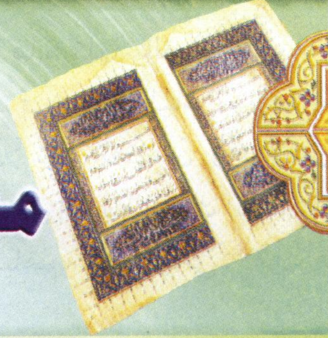


معركة القرآن مع الجمود والتخلُّف

بقلم: د. محمد رفعت زنجير
الأستاذ المشارك بجامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا
والجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا سابقاً

مُقَدِّمة

عند قراءة القرآن من أوله إلى آخره، ومن ألفه إلى يائه، ولدى التمعُّن في مقاصده وأهدافه، وتشريعاته وأحكامه، وأخباره وقصصه، ووعده ووعيده، وأمره ونهيه، ومفصَّله ومجمله، وعامِّه وخاصِّه، وناسخه ومنسوخه، وبيانه وأسلوبه، ولفظه ومعناه، يتبيَّن للمرء من خلال ذلك كله بأن القرآن جاء للقضاء على التخلُّف بكافة أبعاده، ولتطوير الحياة الإنسانية في كافة أوجه النشاط فيها، من فكر وحركة وسلوك وشعور، ومن عقيدة وعبادة واقتصاد وسياسة وغير ذلك.

فالشرك والكفر والنفاق بكافة صوره لون من ألوان التخلُّف الفكري والعقدي الذي قاومه القرآن.

والمعاصي السلوكية كلها من الكبائر والصغائر تندرج في ألوان التخلُّف الاجتماعي والاقتصادي.

والاستبداد والظلم والفتك يدخل ضمن التخلُّف السياسي.

وقد كان القرآن حرباً على مظاهر التخلُّف هذه كلها بالحجة والبرهان، لا بالسيف والسنان، ينقد ويفند ما هو فاسد في واقع الناس وواقع من قبلهم من الأمم والحضارات، قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ [الفرقان: ٥٢] وهو يطرح الرؤية البديلة لذلك كله، التي تدلُّ الناس على ما هو خير لهم في دينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وهذا البحث يأتي لتأكيد فكرة حرب القرآن للجمود والتخلُّف، لنثبت من خلاله أن القرآن كتاب لكلِّ عصر ومصر، وهو الذي يقود البشر إلى الحضارة الراشدة، وينقذهم مما هم فيه من آلام ومشكلات.

منهج البحث:

إن هدف البحث هو معالجة مشكلات التخلُّف بعامة والمتعلِّقة بالعرب والمسلمين على وجه الخصوص، وقد حاولتُ أن أقدِّم جديداً وأن أنأى عن التكرار، ومشكلة التخلف في الفكر والسلوك والقول لدى الفرد والجماعة هي موضوع القرآن برمَّته، فكل سورة منه، بل كل آية إنما جاءت لتضرب التخلُّف أياً كانت صورته في مقتل، ولتبصِّر الإنسان وتنير له درب الحق والخير والجمال، وهو الصراط المستقيم درب السعادة والتقدم والنجاح في الدنيا والآخرة.

وقد اتَّبعت في هذا البحث منهجاً تحليلياً يقوم على تحليل الأمثلة والنماذج وليس على السرد والاستقصاء، لأن التفصيل سيجعل البحث طويلاً، وهو أمر خارج عن القصد هنا، فالقصد هنا أن نقدِّم معالم ونماذج لا أكثر ضمن منهجية علمية موضوعية ينتفع بها القارىء الكريم ويتفيَّأ ظلالَها الباحثون، وهذا البحث مقسم إلى تمهيد وأربعة مباحث وخاتمة.

والله من وراء القصد.



تمهيد

سنتناول في هذا التمهيد بعض الأمور ذات الصلة بالبحث، وهي كالتالي:

أولًا: حقيقة الإسلام:

الإسلام بالمفهوم الشامل هو دعوة أصيلة فطرية ربانية كاملة متجدِّدة عالمية للرقي بالحياة الإنسانية والحضارة البشرية في مختلف أوجه النشاط التعبُّدي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعلمي والأدبي.

وفيما يلي تفصيل التعريف السابق:

فهو ***دعوة أصيلة*** لأنه دين الأنبياء والمرسلين جميعاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عِمران: ١٩].

وفطرية لأنه دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها وهي التوحيد لله ﷻ، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرُّوم: ٣٠].

وربانية لأن مصدره العليّ القدير الذي خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفُرقان: ٦].

وكاملة لأنها تشمل أمور الدين والدنيا معاً، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩].

ومتجددة لأنها ملائمة لكلِّ زمان ومكان بما يفي بتطور الحياة البشرية، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٩].

وعالمية لأنها خطاب للبشر جميعاً دون تفريق بين جنس أو لون، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

وتقدمية لقوله تعالى: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ [المدثر: ٣٦، ٣٧]. قال الزمخشري: (﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾: في موضع رفع بالابتداء، و﴿لِمَن شَآءَ﴾: خبر مقدم عليه، كقولك: لمن توضأ أن يصلّي، ومعناه مطلق لمن شاء التقدُّم أو التأخر أن يتقدم أو يتأخر، والمراد بالتقدم والتأخّر: السبق إلى الخير والتخلُّف عنه، ويجوز أن يكون ﴿لِمَن شَآءَ﴾ بدلاً من ﴿لِلْبَشَرِ﴾ على أنها منذرة للكافرين الممكنين، الذين إن شاؤوا تقدّموا ففازوا، وإن شاؤوا تأخّروا فهلكوا)[١]. وعند ابن كثير: (أي لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدي للحق، أو يتأخر عنها ويولّي ويردّها)[٢]، وقال أبو السعود: (أي نذيراً لمن شاء منكم أن يسبق إلى الخير فيهديه الله تعالى، أو لم يشأ ذلك فيضلّه)[٣].

فمن تقدَّم نحو الخير فقد تقدَّم نحو الحقّ والتوحيد والهدى والصلاح في أمور الدنيا والآخرة، ومن ثم تقدَّم نحو الجنة، ومن تأخر فقد تقهقر وتراجع عن قبول الدعوة وتخلّف عن ركب الحقّ والتوحيد والهدى والصلاح، وابتعد عن منهج الخير والسلام، ومن ثمَّ كان مصيره إلى النار، فالجنة مقرُّ أهل التقدُّم في العقيدة والفكر والقول والسلوك من لدن آدم حتى قيام الساعة، كما أن النار مثوى لكلِّ المتخلِّفين في العقيدة والعبادة

(١) تفسير الكشاف (٤/٦٥٤).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٥٧٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/٦١).



والسلوك، من أول الخلق إلى آخرهم، وما أكثرهم! والتقدّم والتأخر ليس في ناطحات السحاب وصناعة الأسلحة الفتّاكة، والرقي الدنيوي فقط، وإنما هو عملية رقيٍّ في مختلف جوانب الحياة، وفي مقدمة ذلك حياتنا الروحية والشعورية، بحيث نصنع الإنسان المتوازن الخيِّر الذي يحمل الحبَّ والخيرَ للآخرين، ولا يكون هذا إلا عندما تعيش البشرية في ظلال الإسلام ودوحة القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٩].

وأما التخلُّف فهو العيشة بعيداً عن هدي القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠]، فما هي قيمة الإنسان إذا صعد إلى القمر ببدنه، ولم يصعد إلى الملأ الأعلى بروحه؟ وإذا استطاع اكتشاف أدقِّ تفاصيل الخلق، ثم تجاهل الخالق المبدع الكبير، وإذا كان يستخدم المجهر لرؤية الأحياء الدقيقة، ولا يرى عيوبه وعواره، ما قيمة الإنسان إذا انفلت من الدِّين الحق، وراح يأكل لحم إخوانه في الإنسانية، هل غاية التقدُّم أن تصبح الأرض جحيماً مهددة بالتلوّث والفتك والأمراض بفضل الفلسفات المادية المتخلفة التي يزعم أصحابها برغم فسادهم أنهم مهتدون وصالحون ويقودون الناس إلى الفلاح، وما هم إلا كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البَقَرَة: ١١، ١٢].

ثانياً: الإسلام دين الحضارة الشاملة:

جاء الإسلام في بيئة أميَّة جاهلة متخلِّفة، فعلَّمها وثقَّفها وربَّاها وهذَّبها، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجُمعَة: ٢].

وصنع الإسلام من أمة الجهل والتخلُّف خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عِمرَان: ١١٠].

وقد نقل القرآن العرب نقلة بعيدة، وأمرهم بشكر هذه النعمة، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣]، وحذّرهم من العودة للتخلُّف والجاهلية في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها: قوله تعالى محذِّراً من نسيان شرعه ومنهجه شأن الأمم الأخرى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحَشر: ١٩]، وقال تعالى محذِّراً من التفرّق في الدين بعد الهدى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٠٥]، وقال تعالى محذِّراً من عدم الاستجابة الفعلية لدينه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفَال: ٢١]، وقال تعالى محذِّراً من التراجع عن السلوك القويم بعد التمكّن فيه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [النحل: ٩٢]، قال السدي: (هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه. وقال مجاهد وقتادة: هذا مثلٌ لمن نقض عهده بعد توكيده. وهذا القول أرجح وأظهر، سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا... وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعزّ، فينقضون حلف هؤلاء، ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعزّ، فنُهوا عن ذلك)[1].

وقال تعالى محذِّراً من الشرك: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الرُّوم: ٣١].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣٤٥/٢٢).



ثالثاً: محاور حرب القرآن على الجمود والتخلُّف:

والإسلام بطبيعته يرفض الجمود والتخلُّف بكافة صوره وألوانه، فحيث كان الجمود والتخلُّف تكون معركة القرآن، يبدو هذا واضحاً في نصوص كتابه المقدس، القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٢].

فالدين هو حياة وبعث جديد للفرد والمجتمع على حدٍّ سواء، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ولا ينبغي لمن بُعث ودبَّت فيه الحياة وهي هنا نور الوحي والهداية أن يعود إلى الموت المتمثل بظلمات الشرك والجهالة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤].

والعودة للجهالة والتخلُّف قد تكون بالسلوك والعقيدة، أو بالسلوك دون العقيدة، فالتبرّج ظاهرة سلوكية جاهلية قد تخلَّص منها المسلمون، فلا ينبغي التراجع والتقهقر باتِّجاهها مرة أخرى، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

والجمود نوع من التخلُّف، فهو من ذكر الخاص قبل العام، كما في قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: ٢٨]، فالدعاء للمؤمنين والمؤمنات يشمله ويشمل والديه ومن دخل بيته مؤمناً، وإنما تقدم ذكره لمزيد العناية بهم، وعليه.. فالجمود هو روح التخلُّف، وقد تقدَّم ذكره في هذا البحث لنثبت أن القرآن في معركة دائبة معه، فالقرآن كتاب ذكر وحياة وحركة، وهو يرفض جمود الحياة وجمود الفكر وجمود المجتمع، قال تعالى

منددًا بالاتِّباع الأعمى للآباء ولو كانوا جهلة لا يملكون من الحقيقة شيئاً: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة: ١٧٠]، وفي القرآن آيات كثيرة ترفض موقف الكافرين وجمودهم على دين آبائهم المشركين، وتمسّكهم بعادات آبائهم، منها قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤)﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقال أيضاً: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣)﴾ [الأنبياء: ٥٣]، وقال: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤)﴾ [الشعراء: ٧٤]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١)﴾ [لقمان: ٢١]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف: ٢٣].

والله تعالى يريد التنافس في الخيرات، قال تعالى: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ [المطففين: ٢٦]، ويدعو إلى السرعة في عمل الفضائل، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ويعيب على المشركين جمودهم عند سماع القرآن وعدم انكبابهم ساجدين لله الذي أنزله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ (٢١)﴾ [الانشقاق: ٢١].

والحياة لا ينبغي أن تتوقف لموت نبي أو رسول، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وعلى الأمة الاستمرار في نهجه من بعده من غير نكوص إلى الجاهلية، والتبديل في الدين مرفوض لأنه عودة للتخلّف الذي نجّى الله عباده منه، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾ [المائدة: ٥٠]، وليس ثمة إلا حق وباطل، وإسلام وجاهلية، فمن نكص عن دينه فقد عاد للجاهلية التي هي منتهى التخلُّف وقعر الباطل.



وقد حارب القرآن التخلُّف على أربعة محاور، هي:

المحور الأول: من خلال ذكر تجارب الأمم السابقة مع أنبيائها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١]، وهذه القصص أفضل القصص في تاريخ البشرية لما فيها من التنبيه والعبرة، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ٣]. ولكل مجموعة من البشر ظروفها ومشكلاتها، وكان القاسم المشترك الأعظم بين مشكلات الجميع هو الشرك بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦].

المحور الثاني: من خلال المواجهة بين الدعوة وخصومها في مكة والمدينة، وقد ذكر القرآن كثيراً من تفاصيل تلك الأحداث، قال تعالى مصوِّراً حال المشركين ببدر وهزء الشيطان بهم: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٨]. وقال تعالى مبيِّناً سبب الهزيمة يوم أُحد: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال تعالى مبيِّناً ثبات المؤمنين يوم الخندق: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وقال تعالى مبيِّناً الانتكاسة النفسية التي مني بها المسلمون يوم حنين: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: ٢٥]، ولا تكاد تجد شيئاً ذا بال في حياة المسلمين مما يسبِّب تخلّفهم أو تخلُّف أعدائهم إلا وذكره القرآن، وسدد الجميع إلى ما هو أفضل لهم في الدنيا والآخرة.

المحور الثالث: من خلال التشريعات التي فرضها الإسلام والتشريعات الجاهلية التي أبطلها، قال تعالى مبيِّناً عقوبة جريمة الزنى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور: ٢]، وقال تعالى محرِّماً للخمر والميسر وبعض العادات والمعتقدات الجاهلية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠].

وجميع الفواحش تزري بالفرد والمجتمع والأمة، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: ١٥١].

وبالعكس من ذلك، فإن مكارم الأخلاق تنهض بالفرد والمجتمع والأمة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤].

المحور الرابع: من خلال دعوته لتطوير الحياة الإنسانية، فالدين أساساً جاء لبناء حياة إنسانية متكاملة، وليتمِّم نقص الحياة، وليجيب على أسئلة الإنسان ويبيِّن له سرَّ وجوده، ويوجِّه البشر لما فيه مصلحتهم، فهو تقويم للحياة وتوجيه وتهذيب وتكميل، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح: ١٠]، وتكون النتيجة عطاء ونماء في البيئة والإنسان: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١١،١٢].

وقال تعالى على لسان هود عليه السلام يخاطب عاداً: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا



نَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢]. فالإيمان قوة للبشر، وحفظ لهم ولحضاراتهم، وتكميل لهم وعزٌ وبقاء.

فدعوة الأنبياء فيها الخير والنماء للبشر جميعاً، وفيها القوة والحضارة الراشدة، والسعادة للإنسانية جمعاء، وبهذا الصدد كانت دعوة النبي محمد ﷺ هي خلاصة هذا الخير الذي قدَّمه الأنبياء والرسل عليهم السلام للناس جميعاً، قال تعالى مبيِّناً صفات النبي الخاتم محمد عليه الصلاة والسلام، وما في دينه من تحرّر من الأغلال وتجديد في التشريع: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

رابعاً: التخلُّف الذي تعيشه البشرية في العصر الحديث:

يمكن تلخيص حالة التخلُّف الذي تعيشه البشرية في العصر الحديث بصورتين:

الأولى: وهي خاصة بالمسلمين، وتتمثل بنكوص كثير منهم عن تعاليم دينه حتى صار القرآن كتاباً للأموات وليس للأحياء، وللزينة وليس للممارسة، وللبركة وليس للحركة، والدين هنا يشمل حركة الحياة كلها بما فيها الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ولكن القرآن لم يعد يشكِّل حياة المسلمين بكافة أبعادها، وكأنهم قد نسوه بل تناسوه، وقد حذَّر الله من ذلك فقال ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٩]، وقد استشرى التخلُّف في حياة المسلمين في كل اتجاه، حتى صاروا لا يُعرفون إلا به، فأساؤوا إلى أنفسهم وشوَّهوا دينهم الجميل بممارساتهم القبيحة.

والثانية: وهي خاصة بمن سواهم من الأمم والشعوب التي تجهل الإسلام فتحاربه، أو تعرف سرَّ قوَّته وجماله فتحسده، أو تظنُّ أن واقع المسلمين هذا هو من صنع الإسلام فتمقته، وتعيش تلك الأمم والشعوب في ظلام دامس بمعزل عن نور الحقيقة، وتسلك مسلكاً صعباً في حياتها بالسير وراء المادة والتقدُّم العلمي من جهة، بينما تتنكر للخالق الكبير الذي وهبها تلك النعم، وتعيش في خواء روحيٍّ بمعزل عن هدي السماء من جهة أخرى، وهي حياة تسبِّب خللاً نفسياً وعدم توازن في حركة الفرد والمجتمع، وإذا تلك المنجزات مهددة كلها بالفناء، وحياة الإنسان وبقاؤه على وجه الأرض صار مهدداً أيضاً، وهذا كله بسبب عقلية الطغيان التي استولت على البشر حتى صار لسان حال بعضهم يقول: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤] وفرعون أول من قالها وليس آخرهم.

خامساً: ماذا يريد القرآن من البشر:

القرآن كتاب إلٰهيٌّ معجز، تكفَّل الله بحفظه رحمة للبشر، وهو يهدف في البداية والنهاية إلى سعادة الإنسانية وتحقيق التقدُّم والازدهار لها، ولا يكون هذا إلا بفكِّ الأغلال من أعناقها، فلا تكون العبودية لحجر ولا لبشر ولا لشهوة ولا لمال ولا لهوى... وإنما تكون خالصةً لله ربِّ العالمين، وهو دعوة تحترم العقل ولا تلزم الناس على الإيمان بها، فلهم حرية الاختيار على أن يتحملوا مسؤولية القرار بعد ذلك، قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ويمكن إيجاز أهم الأهداف القرآنية بما يلي:

١ ـ التعاون والتعارف بين الأمم والحضارات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن



ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

٢ - الهداية للجميع من غير وصاية ولا إكراه ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء: ١٣١].

٣ - التطور العلمي والأدبي الشامل، فالعلم نعمة نطلب من الله الاستزادة منها، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، والبيان نعمة، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمٰن: ١-٤]. والله سبحانه هو الذي جعل الإنسان في الأرض خليفة لينهض بعمارتها: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] وأمر الإنسان بالحفاظ على البيئة وسلامتها من الفساد ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

٤ - تحقيق العدالة وذلك بإنهاء المظالم على وجه الأرض، وتحقيق الأمن النفسي والأسري والغذائي والاجتماعي للبشر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

٥ - القضاء على الجمود والتخلُّف، وهو موضوع بحثنا هذا.

وهذا البحث مقسم إلى أربعة مباحث وخاتمة، وهي تعالج منهج القرآن في مواجهة التخلُّف في كافة أشكاله الفكرية والعقدية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

المبحث الأول

التخلُّف الفكري والعقدي

التخلُّف الفكري والعقدي هو أسوأ أنواع التخلُّف، حيث يعيش الإنسان كالبهيمة على وجه الأرض، لا يدري له هدفاً غير الطعام والشراب والجنس، ولا يبحث عن سبب خلقه وإلى أين يصير بعد الموت، وهذه حال شريحة كبيرة من أهل الكفر والعناد، قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر: ٣].

وهناك نوع آخر من هذا التخلُّف وهو أن يعيش الإنسان حياته البهيمية من ناحية وهو يملك تصورات دينية مشوهة وقيماً باطلة يؤقلم حياته من خلالها، وهذه التصورات والقيم ما أنزل الله بها من سلطان، وهي تتحكم في سلوك الإنسان وتجعله يتخبط في الظلمات، قال تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١٤٣ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٤٤﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤].

ومن أهم جوانب التخلُّف الفكري والعقدي التي واجهها القرآن بالحجة والبرهان ما يلي:



أولاً: التخلُّف في معرفة الذات الإلهية العظمى:

الله سبحانه وتعالى في التصوّر الإسلامي هو الرب الإله المالك المعبود الموصوف بصفات الجمال والكمال، الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، له الأسماء الحسنى، بديع السماوات والأرض، يسبّح كل شيء بحمده، ولا يشبهه شيء من خلقه. قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والتخلُّف في معرفة ذات العلي القدير له صور عدة، وفيما يلي أهمها:

الصورة الأولى: وهي الشرك بالله تعالى:

وهذه الصورة تأتي في مقدمة صور التخلُّف، والشرك هو أكبر الكبائر وأسوأ الذنوب، وهو على أنواع كثيرة، فمنها:

أ) أن ينسب لله ولد تعالى الله عن ذلك، فكيف يكون له ولد وليس له زوجة ولا صاحبة، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠١].

ولو كان له ولد لكان ولده إلهاً، والإله لا يكون مخلوقاً محدثاً، وإنما هو قيُّوم أزلي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الشراكة في الألوهية تقتضي الصراع بين المتشاركين، ويؤدي هذا إلى فساد الكون بالضرورة، ولما كانت قوانين الكون في منتهى التوحد والانسجام فهذا ينفي الصراع، فالشراكة التي هي سببه، قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١].

ب) ومن الأخطاء البشعة التي وقع بها بعض البشر نسبة بعض الأنبياء والصالحين إلى الله وليس إلى آبائهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ

يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠]. والله أجلّ وأعظم من أن يكون له ولد سبحانه وتعالى. والأنبياء والمرسلون بريئون من الشرك وأهله، وهم أبعد الناس عنه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

ج) ويبالغ بعض المنحرفين عن منهج الرسل عليهم السلام في تزكية أنفسهم، فيدَّعون القرابة والنسب إلى الله تعالى الله عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٨].

د) ومن الشرك صرف العبادة لبعض مظاهر الطبيعة المختلفة، حيث يقف الإنسان مبهوراً في محراب الطبيعة البديع، فيظنّ أن بعض أجرامها آلهة له تهبه الحياة والاستمرار، فيعبدها من دون الله، ويسجد لها ويتقرَّب، مثل السجود للشمس، وهكذا كان قوم سبأ، قال تعالى مخبراً عن هدهد سليمان عليه السلام: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: ٢٣، ٢٤].

هـ) ومن الشرك عبادة الحيوانات والبهائم كما فعل السامري الذي أضلَّ قوم موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٨، ٨٩].

و) ومن الشرك عبادة الأشجار، قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾



[الشُّعَرَاء: ١٧٦]. قال الزمخشري: (وروي أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف، وكان شجرهم الدوم)(١). وعند ابن كثير أنهم (هم أهل مدين، وقد نسبوا إلى عبادة الأيكة وهي شجرة، وقيل شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها)(٢).

ز) ومن الشرك صرف العبادة للأصنام والطغاة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البَقَرَة: ١٦٥]. قال الزمخشري في تفسير الآية: (أنداداً: أمثالاً من الأصنام، وقيل: من الرؤساء الذين كانوا يتبعونهم ويطيعونهم وينزلون على أوامرهم ونواهيهم)(٣).

ومن ذلك ما فعله قوم نوح، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ [نُوح: ٢٣، ٢٤]. قال الزمخشري: (كأن هذه المسميات كانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم، فخصّوها بعد قولهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [نُوح: ٢٣]).

وقد انتقلت هذه الأصنام عن قوم نوح إلى العرب، فكان ود لكلب، وسواع لهمدان، ويغوث لمذحج، ويعوق لمراد، ونسر لحمير، ولذلك سمت العرب بعبد ود وعبد يغوث، وقيل: هي أسماء رجال صالحين، وقيل: من أولاد آدم ماتوا، فقال إبليس لمن بعدهم: لو صوَّرتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم، ففعلوا، فلما مات أولئك قال لمن بعدهم: إنهم كانوا يعبدونهم، فعبدوهم)(٤).

(١) تفسير الكشاف (٣/٣٣٢).
(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٢/٦٥٧).
(٣) تفسير الكشاف (١/٢١١).
(٤) المصدر السابق (٤/٦١٩).

ومن ذلك ما فعله قوم إلياس من دعوتهم للبعل، قال تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الصافات: ١٢٥] قال الزمخشري: (وهو علم لصنم كان لهم كمناة وهبل، وقيل: كان من ذهب)[١].

ومن ذلك ما فعله مشركو العرب، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ١٩-٢٢] وهذه أصنام كانت لهم، وهي مؤنثات، فاللات كانت لثقيف بالطائف، وقيل: كانت بنخلة تعبدها قريش، والعزى كانت لغطفان، وهي تأنيث الأعز، ومناة صخرة كانت لخزاعة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لثقيف، و﴿الْأُخْرَىٰ﴾ ذم، وهي المتأخرة الوضيعة المقدار، قال الزمخشري: (كانوا يقولون إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى، مع وأدهم البنات، فقيل لهم: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النجم: ٢١]. ويجوز أن يراد: أن اللات والعزى ومناة إناث، وقد جعلتموهن لله شركاء، ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث وتستنكفوا من أن يولدن لكم، وينسبن إليكم، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أنداداً لله وتسمونهن آلهة؟)[٢].

والأصنام حجارة لا تضرُّ ولا تنفع، لذا يحذر إبراهيم عليه السلام أباه من عبادتها، ويقول له بحنان الولد المشفق مستهجناً تلك العبادة: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: ٤٢].

وقد استنكر الله عبادة حجارة لا تضر ولا تنفع، فهي جامدة عمياء صمَّاء لا تدري ماذا يدور حولها، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾

(١) تفسير الكشاف (٤/٦٠).

(٢) المصدر السابق (٤/٤٢٣).



أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف: ١٩٤، ١٩٥].

قال الزمخشري: (أي قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء، فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم، لا تفاضل بينكم، ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم فقال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾. وقيل: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾: مملوكون أمثالكم)(١).

وقد يخوِّفون الرسل عليهم السلام من الأوثان التي يعبدونها، ويزعمون لها الضرَّ والنفع، قال تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزُّمَر: ٣٦]، وهذه الأوثان هي جزء من لحمة المجتمع الجاهلي ونظامه الاجتماعي، فالمساس بها مساس ببنية المجتمع الأساسية، قال تعالى على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العَنكبوت: ٢٥].

ومن السخرية أن يقوم العاقل بصناعة صنم ثم يسجد لما صنعه ويقدم له القرابين، ومثل هذا العمل يدلُّ على فقدان حاسة الوعي والإدراك عند صاحبه، ولا بد من مساعدته للتخلُّص من عقدة الوهم الذي يحمله على عبادة تلك الأصنام، ولذلك نجد إبراهيم عليه السلام يهرع لتحطيمها، ليحرِّر قومه من عقدة الوهم والاعتقاد بالخرافة والجهل، ولكنهم بدلاً من أن ينتبهوا استمروا بسكرتهم، شأن المدمن على التخدير الذي لا يصحو أبداً، وهنا ينتصر الله عز وجل لخليله، وينقذه من النار التي قذفوه فيها، قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ

(١) تفسير الكشاف (١٨٩/٢).

﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات: ٩١-٩٨].

ح) ومن الشرك الأمر بعبادة غير الله، قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر: ٦٤]، ولا تنبغي العبادة لأحد غيره ﷻ، حتى ولو كان ملكاً مقرَّباً أو نبياً مرسلاً، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

ط) ومن الشرك أيضاً الاشمئزاز من ذكر الله وحده، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

ي) ويدخل في الافتراء التشريعات الباطلة التي لم يأذن بها الله، قال تعالى في شأن طائفة من أهل الكتاب: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

الصورة الثانية: الإلحاد بأسماء الله وصفاته وأفعاله:

ومن الإلحاد بأسماء الله ﷻ إنكار أسمائه الحسنى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٠].

ومن الإلحاد في صفات الله ﷻ نفي ما وصف به نفسه، فهو سبحانه سميع بصير له الصفات العلا، قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]. أو وصفه بما لا يليق به سبحانه كالفقر مثلاً، وقد



ادّعى ذلك اليهود، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٨١]، أو وصفه بالبخل تعالى الله عن ذلك حيث قال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المَائدة: ٦٤].

ومن ذلك البحث عن حقيقة الذات الإلٰهية، وتشبيهها بالخلق المحدث، قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرّعد: ١٣]، جاء في سبب النزول عن مجاهد، قال: (جاء يهودي، فقال: يا محمد! أخبرني عن ربك، من أي شيء هو؟ من نحاس هو؟ أم من لؤلؤ؟ أو ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته، وأنزل الله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾.. الآية)(١). والعاقل يعلم أن الله لا يشبهه شيء من خلقه، وهو سبحانه أجلُّ وأعظم من كلِّ شيء، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشّورى: ١١].

ومن ذلك الافتراء على الله، ونسبة الأمر بفعل الفواحش إليه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعرَاف: ٢٨].

ومن الإلحاد نسبة الأفعال الإلٰهية في تصريف الكون وأموره لغيره ﷻ، علماً أنه لا خالق غيره ولا فاعل سواه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٢]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/٢٧٤ ـ ٢٧٥).

﴿ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦].

وعليه، فلا تأثير للنجوم ولا للسحرة، ولا للكهان، ولا للعرافين، ولا للأولياء والصالحين، ولا للملائكة أو الأنبياء المقرَّبين في أمور الكون البتة، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣]. وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

الصورة الثالثة: الإلحاد بالذات العلية:

ومن أسوأ صور التخلُّف في معرفة الله تعالى هي الإلحاد به ﷻ، وقد كثر هذا في عصرنا بسبب وجود الشيوعية في القرن العشرين وبقاء بعض أنظمتها في القرن الحادي والعشرين، وبسبب انتشار المذاهب المادية والعلمانية الضالَّة المضلَّة أيضاً، فهؤلاء لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن الحقيقة، وألحدوا وعاشوا كالبهائم، وهو أمر معيب بالإنسان فعله، فكيف يجحد من خلقه؟ وكيف يصرف تدبير أمور الكون إلى الدهر أو الطبيعة؟ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤]. قال الزمخشري: (كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بإذن الله، وكانوا يضيفون كلَّ حادثة تحدث إلى الدهر والزمان، وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان)[١]. وقال ابن كثير: (يخبر

(١) تفسير الكشاف (٢٩١/٤).



تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثمَّ معاد ولا قيامة، وهذا ما يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، وتقوله الفلاسفة الدهرية المنكرون للصانع، المعتقدون أنَّ في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا العقول وكذَّبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي يتوهمون ويتخيلون)[1].

ومما يقود إلى الإلحاد أيضاً طلب رؤية الله جهرة، وجعلها سبيلاً وحيداً لليقين، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢١].

ثانياً: التخلُّف في معرفة الملائكة عليهم السلام:

الملائكة عباد الله تعالى وجنده المكرمون، خلقهم من نور، وميَّزهم بالجمال، وقد أمرهم الله بالسجود لآدم فامتثلوا طائعين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]، وهم يحملون العرش ويستغفرون للمؤمنين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: ٧]، والملائكة لهم أجنحة، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر: ١]، ولهم وظائف كثيرة، قال تعالى في صفة الحفظة منهم: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١١، ١٢].

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٣١١).

وقد نسب المشركون الملائكة إلى الله تعالى، ومن ألوان الشرك زعمهم أن الملائكة بنات الله، وأن الله تزوج بالجن فولدت الملائكة تعالى الله عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الصَّافات: ١٥٨]. وقال تعالى منكراً دعواهم بأن الملائكة بناته سبحانه، وهو ادّعاء لا دليل عليه: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩].

وقديماً عادى بنو إسرائيل جبريل عليه السلام فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البَقَرَة: ٩٧]، بل هنالك من يتجاوز عداوة جبريل إلى عداوة بقية الملائكة، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البَقَرَة: ٩٨].

ثالثاً: التخلُّف في الموقف من الكتب السماوية:

أنزل الله الكتب السماوية: «التوراة والزبور والإنجيل والقرآن» لتهدي الناس، وتعلّمهم، وتدلّهم على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، والقرآن هو خاتم تلك الكتب، وهو المحفوظ بعناية الله إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحِجر: ٩].

وتتجلّى عقلية التخلُّف في مواقفها من كتب السماء بأمور، منها:

أ ـ رفض الإيمان بالكتب جملة، وهو منهج أهل الكفر والملاحدة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النّساء: ١٣٦].

ب ـ رفض الإيمان بما أوصت به بعض الكتب السماوية قبل القرآن، فقد بشّر الله فيها ببعثة محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن



بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦]، وقال أيضاً: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وطالما أن اسم محمد مكتوب في التوراة والإنجيل فهذا يقتضي من أهل الكتاب الإيمان بالنبي محمد وبالقرآن الذي أنزل عليه، وعندما يذكِّرهم النبي عليه السلام بضرورة الإيمان بالله يرفضون ذلك، مع أن الإيمان به يقتضي الإيمان بكتبهم لأن القرآن يصدق بما فيها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: ٩١].

ولقد جحد أكثرهم البشارة بمحمد ﷺ، وكذَّبوا بدينه الحق، وكانت هنالك طوائف تقوم بكتمان الحق الذي يعرفونه جيداً كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

وهم جراء هذا الفعل الشنيع يستحقُّون لعنة الله وغضبه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

والباعث على كتمان الحقيقة هو المصالح المادية العاجلة التي تجعلهم يشترون دنياهم بآخرتهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة: ١٧٤].

وربما طلب بعضهم من النبي عليه السلام أن ينزل لهم كتاباً محسوساً من السماء استهزاء وعتواً، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ

عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النِّساء: ١٥٣].

ج - ومن أسوأ صور تزييف الحقائق تحريف كلام الله المنزل من السماء، وهو ما عمد إليه بعض أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البَقَرَة: ٧٥].

وسبب هذا التحريف مصلحة دنيوية عاجلة تتمثل في مكسب مادي بسيط كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البَقَرَة: ٧٩].

ولا يخفى بأن التبديل في دين الله وكتبه ظلم يستحق أشد العقاب، ولذلك قال تعالى منددًا بما فعله بعض أهل الكتاب: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البَقَرَة: ٥٩].

د - الإعراض عن سماع ما أنزل الله، فربما هرب الكافرون من سماع الحقيقة، وأصابهم الهلع من رؤية صاحبها، فهربوا كما تهرب الحمير الوحشية من اللبؤة زوجة الأسد!، وهو هروب يدلُّ على مدى الذعر والنفور من هذه الدعوة الجديدة، قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾﴾ [المدَّثر: ٤٩-٥١]. ومن أسوأ صور الهروب من سماع الحقيقة صكّ الآذان عند سماعها، وتغطية الرؤوس عند رؤية صاحبها كما كان يصنع قوم نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح: ٥-٧]. قال الزمخشري في شرح الآية: (واستغشوا ثيابهم: وتغطّوا بها، كأنهم



طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تغشيهم كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله)[1]، وأية جهالة أكبر من صكِّ الآذان، والتغطِّي بالثياب، إنه فعل من لا يثق بنفسه ومعتقده، فيريد أن يسدَّ كلَّ منافذ النور التي يمكن أن تبدِّد له ظلام ذلك المعتقد.

هـ ـ المواقف الهزلية من كلام الله، فمن ذلك الضحك عند سماع القرآن، قال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النّجم: ٥٩، ٦٠]. ولا بدَّ لمن أراد أن ينتفع بكلام ربه من الخشوع والتدبُّر، وهو ما يفتقده المشركون، قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢].

رابعاً: التخلُّف في الموقف من الرسل وأتباعهم:

الرسل في القرآن رجال أوحى الله إليهم، وهم خيرة خلق الله، ولهم حظ كبير من الفصاحة والجمال والكمال، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسُف: ١٠٩]، وينبغي الإيمان بهم دون تفريق، قال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البَقَرَة: ١٣٦]، وقال أيضاً: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥].

ومن أسوأ صور التخلُّف في الموقف من الأنبياء والرسل عليهم السلام ما يلي:

أ ـ إنكار النبوات جميعاً، وكأن الله خلق البشر ليكونوا كالهوام السائمة

---

(١) تفسير الكشاف (٦١٦/٤).

على سطح الأرض، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

ب ـ وقد يحاول أولئك المتخلِّفون تقديم تفسيرات غير صحيحة للدعوة، كدعوى أن النبي يريد الزعامة من وراء النبوة، وهذا ما ادَّعاه قوم نوح، قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٤].

ج ـ الهوى والمزاجية، إذ ربما اقترحوا نزول القرآن على رجل بعينه، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، وينسى أولئك الجهلة بأن الله العليم الحكيم هو الأدرى بما يحقق مصلحة دينه وخلقه، وهو الذي يختار من يقوم بتحقيق المصلحة أحسن اختيار، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

د ـ رفض البراهين العقلية واعتماد الخوارق أدلة لإثبات النبوة، إذ يبلغ التخلُّف الفكري مداه الأقصى عندما يطلبون من الرسول عليه الصلاة والسلام الخوارق والمعجزات الحسية، وهو الذي يخاطبهم بلغة العقل والفطرة، وما يكون له أن يأتي بالمعجزات من تلقاء نفسه عليه السلام، لأن المعجزات الحسية لا تأتي وفق أهواء البشر ورغباتهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفرقان: ٧-٩]، وقال أيضاً: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ



وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

ونشير هنا إلى أن معجزة الرسول الكبرى قائمة بين أيديهم وإلى قيام الساعة، وهي هذا الكتاب الخالد الذي تعجز البشرية عن أن تأتي بسورة من مثله، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤]. إن أعناق البشر لا تستطيع أن تتطاول إلى سماء البلاغة القرآنية، والله يعلم ذلك، فقال ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]، ومعجزة القرآن قد جاء معها العشرات من المعجزات الحسية الأخرى التي يقيمها الله ﷻ عند الضرورة أو الدعاء في مواطن الشدة، ولكن يبقى القرآن هو المعجزة الأعظم للنبي الكريم، لأنه المعجزة الباقية إلى قيام الساعة، ويستطيع أي باحث منصف، أن يدرك من خلاله بأن رجلاً أمياً لا يتأتى له أن يقول القرآن من تلقاء نفسه، وإنما هو كتاب رب الأرباب، قال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٦].

هـ - الانتقائية في الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم السلام، وهو منهج لبعض المتخلِّفين من أهل الكتاب، إذ ربما حاول بعضهم التفرقة بين الله ورسله والإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم الآخر، وكأن القضية مجرد هوى أو مزاج، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

و ـ رفض التعايش مع الرسل عليهم السلام وإعلان الحرب عليهم، إذ قد يحاولون إكراه الرسل عليهم السلام للعودة إلى ملة الكفر عنوة حفاظاً على حياتهم وممتلكاتهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [إبراهيم: ١٣]. وقال أيضاً يذكر همة قوم شعيب في الشر، وسعيهم لإخراج نبيهم والعصبة المؤمنة التي التفَّت من حوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]، وكم قتل من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام؟! قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المائدة: ٧٠].

وقد حاول أعداء النبي محمد عليه الصلاة والسلام قتله مراراً، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]. كما لقي النبي عليه الصلاة والسلام أذى شديداً من قومه، قال السهيلي: (فمنها: حثو سفهائهم التراب على رأسه، ومنها أنهم كانوا ينضدون الفرث والأفحاث والدماء على بابه، ويطرحون رحم الشاة في برمته، ومنها بصق أمية بن خلف في وجهه، ومنها وطء عقبة بن أبي معيط على رقبته، وهو ساجد عند الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان، ومنها أخذهم بمخنقه حين اجتمعوا له عند الحجر، وقد ذكره ابن إسحاق، وزاد غيره الخبر أنهم خنقوه خنقاً شديداً، وقام أبو بكر دونه فجبذوا رأسه ولحيته، حتى سقط أكثر شعره. وأما السب والهجو والتلقيب وتعذيب أصحابه وأحبائه وهو ينظر، فقد ذكر ابن إسحاق من ذلك في

الكتاب، وقد قال أبو جهل لسمية أم عمار بن ياسر: ما آمنتِ بمحمد إلا لأنك عشقتِه لجماله، ثم طعنها بالحربة في قبلها حتى قتلها، والأخبار في هذا المعنى كثيرة)[1].

ز ـ رفض الحنيفية المسلمة، إذ يبالغ بعض المتخلفين في باطلهم حين يطلبون من الآخرين اتباعهم في غيِّهم وترك الملة الإبراهيمية المستقيمة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البَقَرَة: ١٣٥].

ح ـ التشكيك بالنبوة والأنبياء، فربما عمدوا إلى إظهار الإيمان بمحمد ثم تراجعوا عنه، وذلك بغية زرع الشك في قلوب المؤمنين، ومن ثم ردتهم عن دينهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عِمرَان: ٧٢].

ط ـ المواقف العبثية والهزلية، فقد يعمد المتخلِّفون من أعداء الأنبياء والرسل عليهم السلام إلى مواجهة الحقيقة والدعوة الجادة إلى الإصلاح والتوحيد والتغيير بمواقف هزلية كوميدية ساخرة تدلُّ على فساد الطبقة الأرستقراطية المترفة التي لا تكترث بالحقائق ولا تنتبه إلا ساعة وقوع العذاب، فمن ذلك نجد الضحك من الأنبياء عليهم السلام جبلة الطغاة وعلى رأسهم الطاغية المغرور فرعون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزّخرُف: ٤٦، ٤٧]. ويلي الضحك الاستهزاء بالأنبياء، والهزء في اللغة: مزح في خفية، وقد يقال لما هو كالمزح[2]، وقد استهزأ الكفرة بالنبي محمد عليه السلام، وبكافة الرسل من

(١) الروض الأنف (٢/٤٨).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة «هزؤ».

قبله أيضاً عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ [الأنعام: ١٠].

خامساً: التخلُّف في الموقف من اليوم الآخر:

يتصور بعض أهل الكتاب أن العذاب في النار سيكون إلى أجل محدود، وهذا يدلُّ على جهلهم بالآخرة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٠﴾ [البقرة: ٨٠].

أما المشركون والمنافقون وهما شريحتان كبيرتان من العرب، فقد يئسوا من الآخرة، ولا يرجون لها قياماً، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ۝١٣﴾ [المُمتحنة: ١٣].

وهم يستغربون إحياء العظام بعد فنائها، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ [يس: ٧٨]، وهذا الاستغراب هو موقف جماعي للكفر قاطبة، وقد بيَّن الله تعالى قصور عقول أهل الكفر وتخلُّفهم وعماهم عن إدراك الحقائق، فكيف يعجز الذي خلقهم أول مرة عن إعادتهم مرة أخرى!؟ قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾ [الإسراء: ٤٩-٥١].

سادساً: التخلُّف في فهم القدر وحركة الحياة:

ويدخل في الجهل والتخلُّف والافتراء على الله نسبة جرائمهم إلى القدر، وكأنه ليس لهم ثمة دخل فيها، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ

شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النحل: ٣٥]. ولا حجة لأحد بالقدر، فقد وهب الله الإنسان العقل، وأعطاه الحواس والقدرة على الكسب، قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان: ٣]، وبعث له الرسل عليهم السلام ليرشدوه، قال تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء: ١٥]، وإنما من شأن العاجز أن يحمل وزره للقدر فراراً من المسؤولية وتجنباً لتحمل القرار.

والقدر سرُّ الله في خلقه، وهو لا ينفي السعي والكسب، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام قد انتبه إلى أن نفراً من الناس سيذهبون إلى التواكل وترك العمل بحجة القدر، فحذر من ذلك، ففي الحديث عن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة**» قالوا: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «**اعملوا فكلٌ ميسَّر لما خُلق له، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل السعادة، وأما إن كان من أهل الشقاوة فسييسَّر لعمل الشقاوة**» ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [الليل: ٥،٦].. الآية[1].

سابعاً: التخلُّف في منهجية التفكير وإعمال العقل:

رفض الحقيقة صورة من صور التخلُّف العقلي، إذ من شأن العقل السليم أن يهدي صاحبه إلى الحق، فما فائدة العقل إذا هدانا إلى الحق ولم نقرّ بذلك الحق أو نتبعه؟ ويتجلّى رفض الحقيقة بأمور كثيرة، منها:

أ ـ الكفر بعد الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [آل عِمرَان: ٩٠]،

(١) متفق عليه. انظر: مشكاة المصابيح (١/٣١ ـ ٣٢).

قال الزمخشري: (هم اليهود كفروا بعيسى والإنجيل بعد إيمانهم بموسى والتوراة، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد والقرآن)[1].

وقد يعلنون الكفر بآيات الله والصدَّ عنها، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران: ٩٨، ٩٩].

ب ـ ومن صور رفض الحقيقة الإعراض عنها، وعدم المبالاة بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٥].

ج ـ ومن صور رفض الحقيقة التشبث بالعقائد الفاسدة والتقليد الأعمى للسابقين ولو كانوا على ضلال! وهو موقف تقفه الجاهلية في كل عصر، حيث تفترض في آبائها وأجدادها الصواب المطلق، وترفض الانعتاق من رقِّ العبودية لفهم الآباء والأجداد، وتحارب أي دعوة لإعمال العقل والتفكير السليم، وهو موقف اتخذته ثمود مع نبيِّها صالح عليه السلام، حيث: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هُود: ٦٢]، وكذلك اتخذه أهل مديَن، حيث: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هُود: ٨٧]، وسارت عليه قريش كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ [سَبَإ: ٤٣].

وهذا الموقف اتخذه كافة المنكرين للرسل والبعث وعقيدة التوحيد،

---

(١) تفسير الكشاف (٣٨٢/١)

قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٠]. وقد استنكر القرآن هذا الاتباع الأعمى للآباء بعد نزول الهدى، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

د - ومن صور رفض الحقيقة التكذيب بها، فهذا النبي محمد عليه السلام يلاقي التكذيب من قومه كما لقيه من قبله من الرسل عليهم السلام، قال تعالى مواسياً له: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾ [فاطر: ٤]، وسبب هذا التكذيب أن الكافرين أصلاً يحبُّون الافتراء والكذب حتى صار ديدنهم وجبلَّة فيهم، فلا يتورَّعون عن رمي الصادقين به كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، وطالما كذب حزب الشيطان بالرسل عليهم السلام، فلا عجب بأن نجد لديه رغبة جامحة في ردة المؤمنين عن دينهم كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩].

هـ - ومن صور رفض الحقيقة الاستكبار عن قبولها، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ٣٥]، والاستكبار يسبِّب نبذ الدعاء عند المحن والشدائد، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٣]. فهؤلاء السفهاء يرفضون الدعاء، لأنه في تصوُّرهم سلاح الضعفاء، وهم مغرورون بقوَّتهم وأعمالهم.

و ـ ومن صور رفض الحقيقة السخرية من أصحابها وحملتها، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة: ٢١٢].

وفي نهاية هذا المبحث نقول: إن عقلية الكفر عقلية مادية طاغية وتفكيره سقيم عقيم، ومنهجه جدال وباطل، لا تقوم له حجة، وليس له برهان، وقد وقف حزب الشيطان موقفاً سلبياً من الأنبياء والرسل عليهم السلام وأتباعهم، ففسّروا النبوة بأنها ضرب من السحر أو الجنون، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢]، وأعرضوا عن كل آية حتى لم تعد تؤثر فيهم أي آية، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر: ٢]، وعطلوا حواسّهم التي وهبهم الله إياها، فلم يروا الحقَّ ولم يسمعوه ولم يفقهوه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقد عاش هؤلاء على الأرض يمارسون المأكل والمشرب والجنس كما تعيش البهائم التي لم تزوَّد بحواس التأمّل والتفكير، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢]، وهم يرفضون الحقَّ رفضاً مطلقاً، وقد قال بعضهم من كفار قريش بلغة لا تخلو من التحدي: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]. نعوذ بالله من الخذلان.





المبحث الثاني

التخلُّف الاجتماعي

الإسلام دين مكارم الأخلاق، أو دين تجويد العلاقة مع الآخر سواء أكان رباً يُعبد وهو الله العزيز العليم، أو مخلوقاً يَعبد كالبشر وسائر المخلوقات، فهو بالمنظار الحضاري تواصل مع المجتمع والبيئة والكون وما وراء البيئة المحسوسة من عالم الغيب، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقد حرص الدين على إقامة النظام الاجتماعي على قيم ثابتة من الخير والتكافل والتعاضد له، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٠٤]. وفي مقابل ذلك ندد الدين بقيام المجتمعات على الهوى والضلال، لأن الإنسان إذا غُيِّب عنه نور الوحي رأى الخير شراً، والشرَّ خيراً، قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبَة: ٦٧].

وفيما يلي أهم مظاهر التخلُّف الاجتماعي الذي يسود الأمم والشعوب، وبيان لموقف الإسلام منه:

أولاً: النزاعات القبلية والطائفية:

النزاع بين الناس لعارض ما أمر واقع في كلِّ المجتمعات، ولكن التخلُّف في عملية فضِّ النزاع هو عدم الاحتكام إلى مرجعية المجتمع لفضِّه، ولا سيما إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام هو رأس تلك المرجعية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النّساء: ٦١].

ومن التخلف أن يعلن أهل الضلال وصايتهم على أهل الصلاح، فيهدِّدون بإخراجهم من أوطانهم إذا لم يغيِّروا سلوكهم، قال تعالى حكاية عن قوم لوط الذين كانوا يمارسون أقبح الفواحش: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٦٧]، والعجيب أن سبب الإخراج هو طهارة آل لوط عليه السلام، فلم ينغمسوا في حمى الشذوذ والإباحية التي انغمس فيها قومهم، قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النَّمل: ٥٦]. وقد كان قوم لوط متلبسين بعدة من الآفات الاجتماعية، فكانوا: (يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويأتون في ناديهم - وهو مجتمعهم ومحلُّ حديثهم وسمرهم - المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه)[1].

ومن ذلك ما فعله كفار قريش بأصحاب النبي عليه السلام، (قال ابن إسحاق: ثم إنهم عدوا على من أسلم واتَّبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كلُّ قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذِّبونهم بالضرب، والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتدَّ الحر، من استضعفوا

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير، تحقيق سعيد اللحام، ص٢٠٠.



منهم يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يَصلب لهم والله يعصمه منهم)[1].

والدين الحق يرفض تقسيم المجتمع إلى طوائف يستعبد بعضها بعضاً، ويتحكم بعضها برقاب بعض، فالعدل والمساواة هما قاعدة البناء الاجتماعي في الإسلام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

ووظيفة الحاكم أن يحكم بالحق لا بأهواء الناس، قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦].

وفي حال العقوبة ينبغي الترفُّع عن التشفِّي والحقد والتمثيل بالآخرين، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦].

وإذا كانت الفئات التي تعيش مع المسلمين غير راضية عنهم حتى يتركوا دينهم، فعلى المسلمين ألا يفعلوا ذلك، وأن يصبروا في تعايشهم مع الآخر، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقد يكون الآخر لا يقبل بالحجة والبرهان، وهنا يبقى كلٌّ على معتقده في جوٍّ من الحوار لا الصراع، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ

(١) السيرة النبوية، لابن هشام (٦٧/٢).

بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: ١٤٥].

ووظيفة النبي عليه الصلاة والسلام أن يقيم حكم الله في أتباعه، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: ٤٩]، وعليه بالاستقامة على منهج الله، والتعايش مع الآخرين والحوار معهم، إلى أن يحكم الله بين الجميع يوم القيامة، قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى: ١٥]. وعليه فالمجتمع الإسلامي مجتمع متقدم يستوعب الآخرين ويحاورهم، ويبتعد عن تكريس الطائفية والصراع بين الناس وهو ما تلجأ إليه السياسات المتخلفة عبر التاريخ.

ثانياً: توسع الطبقات المسحوقة في المجتمع:

عمد التشريع الرباني إلى قسمة عادلة لموارد الدولة، ومن ذلك الغنائم، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: ٤١].

ومع إقرار الشريعة بالفوارق بين الطبقات في المجتمع، حيث قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِۚ﴾ [النحل: ٧١] بيد أن الله تعالى شرع الصدقات من أجل تقريب الفجوة بين الأغنياء والفقراء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ



﴿حَكِيمٌ ۝٦٠﴾ [التوبة: ٦٠]، وأوصى في مواضع متعددة من كتابه الكريم بالفقراء والمساكين والمسحوقين من أبناء المجتمع، قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦﴾ [الإسراء: ٢٦].

أما المتخلِّفون من البشر، فهم يستبيحون جمع المال من أي طريقة ولو كانت لقمة من أفواه اليتامى يغتصبها أولئك المتخلِّفون، مما حذر منه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ [النساء: ٢]، وبيَّن عقوبة أكل أموال اليتامى فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء: ١٠]، وندَّد ﷻ بسلوك تلك الطغمة التي تمسك المال ولا تمسح به دموع المحتاجين، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤﴾ [الحاقة: ٣٤]، وبيَّن لوم أهل النار لأنفسهم لأنهم كانوا يمسكون هذا المال عن مستحقِّيه، قال تعالى: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤﴾ [المدثر: ٤٤]، فالمال ينبغي أن يكون سبباً للتواصل وبناء العلاقات الاجتماعية، وليس وسيلة للتطاحن والعداوات والصراع الطبقي الذي يهدِّد أمن المجتمعات، وينذر بنشوء الحروب الأهلية في الأمة الواحدة والبلد الواحد في ظلِّ الفلسفات الوضعية التي لا تستند إلى الذِّكر الحكيم.

ثالثاً: التخلُّف في دور المرأة ووظيفتها الاجتماعية:

لم يكن للمرأة قبل الإسلام شأن يذكر، وذلك بسبب الرؤى الجاهلية التي تنظر إلى المرأة على أنها متاع رخيص، وسبب للعار، فهم لا يرحِّبون بولادتها أساساً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾ [النحل: ٥٨]، وكان منهم من يئد البنت وهي وليدة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير: ٨،٩].

وكان هنالك من يأكل مهرها، وقد نهى الله عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤﴾ [النساء: ٤].

ونهى الله ﷻ عن أكل مال المرأة بصورة محرمة، أو فعل ما يؤدي إلى ذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩]. قال الزمخشري: (أي أن تأخذوهن على سبيل الإرث كما تحاز المواريث، وهنَّ كارهات لذلك أو مكرهات، وقيل: كان يمسكها حتى تموت، فقيل: لا يحلُّ لكم أن تمسكوهن حتى ترثوا منهن وهن غير راضيات بإمساككم. وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها مع سوء العشرة والقهر، لتفتدي منه بمالها وتختلع)[1].

وكثيراً ما تتبذل النساء ويتحدثن إلى الرجال بلغة فيها تذلُّل وانكسار مما يطمع بهن الرجال، وقد نهى الله ﷻ عن ذلك لما يلحق بالمرأة من الأذى، قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وأمر الله بالحجاب حفاظاً على المرأة وتنزيهاً لها عن خبيثة التبرج الذي كانت عليه المرأة في الجاهلية، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وشرع عقوبة الزنى حفاظاً على الأعراض، ودفعاً لكلِّ أسباب تفكُّك الأسرة والمجتمع، قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور: ٢].

ورفض الإباحية الجنسية والشذوذ وكل ما من شأنه أن يصرف الرجل عن العلاقة السوية مع المرأة ضمن نطاق الزوجية، قال تعالى منددأ بقوم لوط المتخلِّفين: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ [هود: ٧٩].

(١) تفسير الكشاف (١/٤٩٠).



وأشار القرآن إلى فتنة المرأة وكيدها، منبهاً ومحذِّراً للرجال من الاندفاع معها في عاطفتها المدمرة، قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: ٢٣].

وأساس الخلل في التعامل مع المرأة يعود إلى أمرين:

الأول: جحدها حقوقها والتعامل معها على أنها دون الرجل في الإنسانية.

والثاني: الإسراف في إعطائها حقوقها وتفضيلها على الرجل حتى صار عبداً لها، وهو ما فعله المعاصرون.

وكلا الموقفين متخلِّفان، والصواب هو ما عليه الشريعة من العدل واحترام الجنسين، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النّساء: ١٢٤].

رابعاً: التخلُّف في الخطاب الإعلامي:

الخطاب الإعلامي جزء أساسي في حياة الأمة الاجتماعية، وهو عند أهل الجاهلية ومن اتبعهم خطاب مشوَّه متخلِّف يقوم على ما يلي:

- الحياة عندهم لهو ومرح، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [غافر: ٧٥].
- الجدل، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [الحَجّ: ٣]، وهذا الجدل لا يستند إلى أي مصدر علمي رصين، ولا إلى منهج قويم، أو حقيقة ثابتة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الحَجّ: ٨].
- الترويج للباطل، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾ [لقمان: ٦].

- مصادرة الآخر وتشويهه، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾ [البقرة: ١١١].

- الإشاعات والأوهام الفاسدة، قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤)﴾ [الأنبياء: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤)﴾ [النمل: ٦٤].

- خيانة المعرفة، كما هو شأن أحد علماء بني إسرائيل، وهو بلعام بن باعوراء، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] جاء في التفسير: (قال ابن عباس رضي الله عنه: هو رجل من أهل اليمن يقال له: بلعم، آتاه الله آياته فتركها، وقال مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل، وكان مجاب الدعوة يقدِّمونه في الشدائد، بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلى ملك مَدين يدعوه إلى الله، فأقطعه وأعطاه، فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام)[1].

خامساً: التخلُّف الأخلاقي والقيمي:

الأخلاق عماد الأمم، وأساس قيام الحضارات، والتخلُّف فيها موجب لزوال الأمم والحضارات، ويشمل التخلُّف فيها أموراً كثيرة، منها:

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/٦٥).

أ ـ أمهات الجرائم:

هنالك جرائم مدمرة، وهي أساس لكل انحراف بالقول والسلوك، فمن ذلك الشرك والقتل والزنى والفواحش والبغي، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

ومن أمهات الجرائم: الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

ومنها: الفرار عند الزحف، وترك الدفاع عن العقيدة والوطن، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال: ١٥].

ب ـ التشبث بالقيم والتقاليد البالية:

إن من عادة أهل الضلال التشبث بالقيم والتقاليد البالية، والجمود عند العقائد والأوهام الفاسدة، رافضين أي دعوة للإصلاح، أو لتحريك هذا المستنقع الساكن الذي يغوصون في وحله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٤].

ويدفعهم جمودهم هذا إلى السخرية من المؤمنين، والتهكم

بالصالحين، وهم ينظرون إلى طلائع المؤمنين من المهاجرين والأنصار نظرة لا تخلو من استهزاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠]. فهم في حالة رفض مزمن للإصلاحات العقدية والأخلاقية والسلوكية التي يقودها الأنبياء عليهم السلام.

ج - شيوع القيم الاجتماعية الفاسدة:

من مهازل مجتمعات الضلال ودلائل تخلُّفها شيوع قيم فاسدة في النفوس، كالتكبُّر الذي يطمس عيون أصحابه فلا يهتدون إلى الحق، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦]. وقد يكون المتكبِّرون أصحاب قوة وسلطان في الأرض حتى إنهم ليتحدّون أنبياء الله ويرفضون الانقياد له سبحانه كما هو شأن عاد حيث قال تعالى في شأنهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فُصِّلَت: ١٥].

ومن القيم الفاسدة: التكذيب، وهو عملية متخلفة لرفض سلطان الحق، قال تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾ [القَمَر: ٣]، ولا يضير الحقيقة أن يكذب بها أهل الباطل، كما لا يضير ضوء الشمس جحود الأعمى، قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنعَام: ٦٦].

ومن القيم الفاسدة: الجهل، فالجهل محور العقيدة التي يتشبث بها المتخلِّفون من أهل الجاهلية، فقد زعموا أن الله تعالى تزوج الجن فولدت له الملائكة، فالملائكة بناته سبحانه ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الصَّافات: ١٥٨]، (قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة



بنات الله تعالى. فقال أبو بكر ﷺ: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن)[1]. وقد ندَّد الله بعبادتهم للجن واتخاذهم شركاء له سبحانه، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠﴾ [الأنعام: ١٠٠].

ولأن الجهل متغلغل في أعماق أهل الجاهلية، فقد حذر القرآن من ردة فعلهم عند التعامل معهم ومع آلهتهم المزيفة، ورفض القرآن شتم آلهتهم، ليس لأنها لا تستحق الشتم، ولكن لكي لا يقوم المشركون بالشتم المتبادل فيسبّوا الله العزيز العليم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٠٨﴾ [الأنعام: ١٠٨].

ومن القيم الفاسدة: اتباع الهوى، وهو من خصائص أهل الجاهلية، قال تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ۝٢٩﴾ [الروم: ٢٩]، والأسوأ من ذلك أن يكون الهوى إلهاً يُعبد من دون الله تعالى، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣﴾ [الفرقان: ٤٣]، وإعراض ملة الجاهلية عن الهدى القرآني والتفاعل معه هو بسبب الهوى، قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٤٩ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥٠﴾ [القصص: ٤٩، ٥٠].

ومن القيم الفاسدة: الصد والإعراض عن سبيل الله تعالى، قال تعالى بشأن المنافقين الذين يرفضون العودة إلى المرجعية النبوية وقت الأزمات: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ [المنافقون: ٥]، والإعراض في الأصل صفة من صفات أهل

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/١٩٣).

الكفر أخذها عنهم المنافقون، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

د ـ اقتراف الآثام والموبقات:

من خصائص المجتمع الجاهلي المتخلّف اقتراف الآثام والموبقات، أو الكبائر التي حرمها الله في القرآن الكريم، حيث قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النّساء: ٣١]، وهذه الكبائر لها أمهات سبق ذكرها، ولها عناصر أخرى مما يتفرع عنها من تضييع حق الله أو حق العباد، وهي في مجموعها تزري بالإنسان العاقل والمجتمع المتمدّن، وتهدّد أمن وسلامة الفرد والأسرة والمجتمع.

فمن ذلك: عقوق الوالدين، وهو أمر مقيت ولا سيما إذا كانا يدعوانه إلى الحق وهو يرفض ذلك، قال تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأحقاف: ١٧].

ومن ذلك: قتل الأولاد خوفاً من الفقر، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأنعام: ١٣٧].

ومن ذلك: الظن والتجسس والغيبة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحُجرات: ١٢].

ومن ذلك: رفع الصوت أثناء الكلام، قال تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٩]، وأسوأ حالات رفع الصوت مع النبي ﷺ، مما يوجب إحباط العمل والعياذ بالله



تعالى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحُجرَات: ٢].

ومن ذلك: الحلف كذباً، والغيبة والنميمة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۢ بِنَمِيمٖ ﴿١١﴾﴾ [القَلَم: ١٠،١١].

ومن ذلك: البخل وعدم دفع الزكاة الشرعية والصدقات لمستحقِّيها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٨٠].

ومن ذلك: ترك الواجبات الشرعية، كالصلاة والحج مثلاً، مما يوجب أشد العقوبة في الآخرة، قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدَّثِّر: ٤٢،٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: ٩٧].

ومن ذلك: الغناء والمزامير، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾﴾ [لقمَان: ٦] ورد عن ابن مسعود في تفسير الآية: (الغناء، والله الذي لا إله إلا هو، يردِّدها ثلاث مرات، وقال الحسن البصري: نزلت هذه الآيـــة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [لقمَان: ٦] في الغناء والمزامير)[1].



(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٦٢ ـ ٦٣).

المبحث الثالث

التخلُّف الاقتصادي

المال قوام الحياة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥]، وهو زينتها أيضاً، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

وحب المال مركوز في جبلة الإنسان، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٤]. وهو شديد الحرص عليه، ضنين به، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العَاديَات: ٨]. والمراد بالخير: (المال، من قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البَقَرَة: ١٨٠]، والشديد: البخيل الممسك)[١].

هذا المال جعله الله لعمارة الأرض، ولخدمة مصالح الناس، وليتم التعاون والتبادل من خلاله، وهو أيضاً وسيلة للقربى والزلفى عند الله تعالى، وذلك عندما ينفق ابتغاء وجهه تعالى، فتمسح به دموع المحتاجين، أو ينشر من خلاله نور الحق المبين حينما ينفق في أبواب العلم والجهاد ونحو ذلك من أعمال البر، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ

(١) تفسير الكشاف (٤/٧٨٨).



حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

ولكن المال عند أهل الجاهلية، والمتخلِّفين من أتباعهم في عصرنا، ومن تبعهم من سائر الماديين والطغاة والملحدين هو وسيلة للغي والغطرسة والتعالي على الآخرين، يجمعونه من أي وسيلة ولو بتجارة الخمر والممنوعات، ويسعون للمّه ولو بالحروب والمشاحنات، وينفقونه للتباهي والتعالي، ويفسدون من أجله البيئة بقطع غاباتها ورمي النفايات النووية في بحارها، وتعد قيمة الإنسان من خلال ما يملكه لا ما يعقله ويعلمه، بل صار العلم وسيلة للمال وليس العكس في الوضع العالمي المنكوس المقلوب على عقبيه، حتى صار السفلة من البشر يتحكمون بمصائر الأمم والشعوب.

وقد تكلَّم القرآن عن التخلُّف في النظرة إلى المال والفساد الاقتصادي بأشكاله المختلفة، فمن ذلك:

أولًا: التنافس الحر بمعزل عن الأخلاق:

يعمد عبيد المال إلى جمعه من كل وسيلة ولو بالسرقة، ولذلك جعل الله تعالى عقوبة السارق قطع يده، لأن اليد التي تسرق لا تستحق إلا القطع، فهي تدمِّر اقتصاد الأمة، وتحرم المالك الأصلي من ماله الذي تعب في تحصيله وهو في حاجة إليه، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨].

وهنالك من يجمعه عن طريق التلاعب بالقانون وبمساعدة المحامين المزيفين، أو بواسطة الرشوة، وهذا أسلوب متخلف للكسب غير المشروع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة: ١٨٨]. والمعنى: (ولا تلقوا أمرها والحكومة فيها إلى الحكام ﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾ بالتحاكم ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة

﴿مِنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ بشهادة الزور أو باليمين الكاذبة، أو بالصلح، مع العلم بأن المقضي له ظالم... وقيل: ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ﴾ وتلقوا بعضها إلى حكام السوء على وجه الرشوة)(١).

وهنالك من يريد أكل مال الآخرين بأية صورة ممكنة، فتارة بالشيكات التي لا رصيد لها، أو بجحد الديون، أو بالمماطلة في أداء الدين، أو أكل حقوق العمال والمستضعفين، أو بالاحتكار ونحوه، وكل هذا من الأساليب المتخلفة المقيتة في جمع المال والتي تولد الحقد والكراهية بين الناس، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء: ٢٩].

وهنالك فئة لا تتورع حتى عن أكل أموال الأيتام الذين هم بحاجة إلى من يربيهم ويرعاهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠]، ويدخل في هذا الوعيد أيضاً الذين يأكلون أموال الجمعيات الخيرية التي تجمع أموالها لليتامى والمساكين ونحوهم من المعوزين.

وهنالك من يجمع المال بواسطة الربا، وهو عملية استغلالية مقيتة لحاجات الناس، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وهنالك من يريد جمع المال عن طريق التلاعب بالموازين، كما هو حال قوم شعيب، قال تعالى على لسان نبيّه شعيب عليه السلام: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ

(١) تفسير الكشاف (٢٣٣/١)



﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٨١-١٨٣]. قال ابن كثير: (وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوأ الناس معاملة، يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيهما، ويدفعون بالناقص)[1].

ثانياً: المال هدف بحدِّ ذاته:

المال في يد المؤمن وسيلة لتضميد جراح الناس وتخفيف معاناتهم عندما ينفق في وجوه البر والطاعات، وقد مدح الله عباده المنفقين، وذم الإمساك، فقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البَقَرَة: ١٩٥].

ولكن طغمة الكفر المتخلفة لا ترى في المال إلا البداية والنهاية والوسيلة والغاية فلا تطلب من الله إلا الدنيا، ولا ترغب في شيء مثل المال، قال تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٠].

وهؤلاء المتخلفون إذا دخل الدرهم خزائنهم أمسكوه بها، فلا يبرحها إلى وجوه الخير أبداً، إنه البخل الذي سيقلب أموالهم عليهم عذاباً يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٨٠].

وفلسفة البخل لا تقتصر على صاحبها، بل تجعله يبشر بها، ويأمر الآخرين بها، وكأنه قد خلق لهذه الغاية، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النِّساء: ٣٧].

---

(١) قصص الأنبياء، تحقيق سعيد اللحام، ص٢١٣.

وعشاق المال هؤلاء سيصرخ أحدهم بأعلى صوته قائلاً كما قال تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾﴾ [الحاقة: ٢٨]، فالمال سيكون وبالاً على صاحبه يوم القيامة إذا جنده للباطل أو حرم منه مستحقيه.

والإسلام يحب العفة، ويكره السؤال في غير ضرورة، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وهو مع الغنى وتطوير المجتمعات اقتصادياً، وهيهات أن تكون هنالك آية تمدح الفقر لذاته، وإنما مدحت الفقراء الصابرين الذين كان فقرهم بسبب الهجرة وترك أموالهم بمكة، فالفقر في هذه الحال عارض كالموت والجراحات والأذى التي تصيب المؤمن في حياته، فهي محمودة لا لذاتها، وإنما لثوابها الجزيل عند الصبر عليها، وذلك لأنها كانت في سبيل العلي القدير، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ٨].

ثالثاً: عدم رعاية حقوق الأمة في المال:

المال عند المتخلّفين من المشركين والمرتدين كنز يجب الحفاظ عليه، والإنفاق عندهم يبدّد المال ويذهبه، ويجلب الفقر والتعاسة، وقد قال تعالى داحضاً هذه الرؤية الشيطانية للإنفاق ومبيناً أنه سيجود على المنفقين: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقد دأب أهل الشرك والتخلُّف على منع زكاة أموالهم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾ [فصلت: ٧]، وهم لا يطعمون مسكيناً ولا يغيثون ملهوفاً، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ



ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقة: ٣٤]. وأنى لهم أن يطعموا المساكين وهم الذين يجمعون أموالهم من عرق الكادحين، وجوع الفقراء والمستضعفين.

ويبرر هؤلاء الفقر بأنه قضاء وقدر من السماء لا يد لهم فيه، وأن الله لو شاء لأطعم الجميع، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ [يس: ٤٧]، ولا حجة لأحد بالقدر، فإن الله تعالى ابتلى عباده في الدنيا ورفع بعضهم فوق بعض ليتعاونوا ويتكاملوا فيما بينهم، وليبلوهم ويختبرهم من خلال ذلك، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقال أيضاً: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقد حرص القرآن على توزيع الثروات الإنسانية بالعدل، فلا ينبغي أن تتركز الثروات كلها بأيدي ثلة قليلة بينما لا يملك الآخرون من أفراد المجتمع إلا الفتات، وفي هذا الصدد جاءت آية توزيع الفيء تخصه بالفئات الفقيرة أو ذات الدخل المحدود دون الأغنياء، قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر: ٧]، قال الزمخشري: (كيلا يكون الفيء الذي حقه أن يعطى الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها جداً بين الأغنياء يتكاثرون به، أو كيلا يكون دولة جاهلية بينهم، ومعنى الدولة الجاهلية: أن الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة، لأنهم أهل الرياسة والدولة والغلبة، وكانوا يقولون: من عزَّ بزَّ. والمعنى: كيلا يكون أخذه

غلبة وأثرة جاهلية، ومنه قول الحسن: اتخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دولاً، يرى من غلب منهم أخذه واستأثر به)[1].

رابعاً: رفض القيم الإنسانية والضوابط الشرعية:

ينظر كثير من أصحاب الأموال من الجاهلين والمتخلِّفين منهم إلى المال وكأنه روح الخلود في أيديهم أو إكسير الحياة، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾﴾ [الهُمَزة: ١-٣].

وتجدهم يمارسون الطغيان في أفظع أشكاله، ويتيهون على العباد فسقاً وتجبُّراً بسبب هذا المال الذي في أيديهم، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العَلَق: ٦، ٧].

ولهؤلاء أسلوب متخلف في استخدام المال بين كنز، أو تبديد وإسراف، وكثيراً ما يستخدمون المال وسيلة للضغط على الدعوة ولابتزاز الناس وصرفهم عن نبيِّهم عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ [المنافِقون: ٧].

وتجدهم في المناسبات العامة والأعياد يختالون كالطواويس في زينتهم وحليِّهم وهم يشمخون أنفة واستكباراً على المستضعفين في الأرض، ومثال ذلك ما فعله قارون أمام قومه، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القَصَص: ٧٩].

واستخدام المال في الخيلاء والاستعلاء الكاذب شأن الأقوام أيضاً كما هو شأن الأفراد، فهذه عاد تعمر بأموالها الأرض، وتستثمر وتتباهى،

(١) تفسير الكشاف (٤/٥٠٢ ـ ٥٠٣).



ويقودها هذا إلى العبثية والبطش والروح الانتقامية ورفض الغيب والتسليم بالبعث والمعاد، قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٢٨-١٣٠] والريع: المكان المرتفع، والمصانع: مآخذ الماء. وقيل: القصور المشيدة والحصون(١).

وكثيراً ما تبدد ثروات الأمم في الفساد والصدّ عن سبيل الله تعالى، فهذا فرعون مثال للقائد الفاسد الذي يبدد أموال شعبه في تزيين المنكر، وتعبيد الجماهير له من دون الله، ومحاربة موسى عليه السلام ومن معه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يُونس: ٨٨]. من ذلك ما وعد به السحرة عندما سألوه عن مكافأتهم لو انتصروا على موسى، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأعرَاف: ١١٣]، وكان جواب فرعون أنه وعدهم بالمال والزلفى عنده، حيث سيتقربون من حضرة صاحب البلاط الفرعوني، قال تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعرَاف: ١١٤].

وهذا الترف والفساد في تبديد الثروات يقود إلى هلاك الأمم والشعوب في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسرَاء: ١٦] ويقود أصحاب الترف إلى العقاب الخالد في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الواقِعَة: ٤٥]. فالمترفون والمبذرون لا يستحقون إلا الفناء والرحيل عن هذه الحياة، والعقاب الخالد يوم الدين.

---

(١) انظر: تفسير الكشاف (٤/٣٢٥ ـ ٣٢٦).

خامساً: عدم تطوير البيئة واستثمار خيرات الأرض:

خلق الله الإنسان ليعمر الأرض، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، وسخَّر له الماء والثروات المعدنية والشمس والقمر والسحاب والرياح كلها لخدمته، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: ١٣].

وبيَّن سبحانه للإنسان بأنه سيساعده على عمارتها إذا تاب إليه ووحَّده سبحانه، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وجعل الله تعالى في الأرض المعادن والحديد لينتفع بها الناس، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥].

وقد علَّم الله تعالى نبيَّه داود عليه السلام صنعة الدروع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠، ١١]، وبيَّن الحكمة من تعليمه الدروع وهي حفظ الدم الإنساني عند الحرب، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٠].

ومنَّ الله على عباده بالتجارة، لما في التبادل من المنافع، قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾﴾ [قريش: ١، ٢]، وأمر بالسعي لطلب الرزق عقب صلاة الجمعة، فقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠].



وعليه، فإن أي تقصير في الأنشطة والاستثمار لموارد البيئة الطبيعية يخالف الغاية التي وضع الإنسان لأجلها في الأرض وهي عمرانها، وما عليه واقع الأمة اليوم من التخلُّف الزراعي والصناعي والتجاري أمر منافٍ تماماً لروح الإسلام الذي يحثُّ دوماً على التطوير والإبداع وقيادة ركب الحياة، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عِمرَان: ١١٠]. ولا ينبغي لخير أمة أن تعتمد على غيرها في الزراعة والصناعة والتجارة حتى أصبحت تستورد من الإبرة إلى المدفع، ومن لعب الأطفال إلى الطائرات، وقد أرهق هذا الاعتماد على الآخرين ميزانيات الدول، فأصبحت دولاً مدينة فقيرة، وذلك لأنها لا تملك التكنولوجيا ولا الخبرة ولا المعلومات، وصارت بعض الدول تتكىء على المساعدات الخارجية لإطعام شعوبها، وهذا كله نتيجة التخلُّف الذي ينبذه الإسلام بل يحاربه، فالإسلام يريد أمة قوية منفقة في وجوه البر تقود العالم نحو الخير والسلام، ولا يريد أمة محطمة متقاعسة يرمي لها الناس بفتات أموالهم، وبزجاجة الماء والدواء في أحيان كثيرة.

إن الأمة المتخلفة اقتصادياً لا يمكن لها أن تقود سفينة الحياة، ولا يمكن لها أن تحمل رسالة الإسلام بشكل حضاري يجعل الآخرين يقدرونها ويدخلون في هذا الدين أفواجاً، لقد أصبح الفقر والمسلمين قرناء، وهو أمر لا يمكن للإسلام أن يقرَّه، فالإسلام يريد أمة قوية رائدة في هذه الحياة، تكون محل القدوة للنخبة فما أدراك بمن سواها، قال تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].



المبحث الرابع

التخلف السياسي

الأساس في العملية السياسية هي تنظيم شؤون الناس بما يحقِّق غايتهم من الوجود ومصالحهم الحياتية، واستمرار وجودهم وبقائهم، ولا يكون هذا إلا باتباع الحقِّ الذي أنزله الله، أو بعبارة أخرى بسيادة الشرع الإلٰهي الذي لا يتحيز إلى فئة ضد أخرى، ولا تغيب عن منزله ﷻ أية معلومة في الأرض ولا في السماء، وبذلك تكون شريعته هي الحق الكامل والعدل الكامل، قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦].

والعدل هو جوهر السياسة من وجهة نظر الدين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

بمعنى آخر: إن الدين لا يعنيه رفع راية إسلامية لا رصيد لها في الواقع، بل لا بدَّ من ممارسة مقتضيات الشعار الإسلامي في الواقع من خلال حكم العدالة، والعدالة في فحواها تعني تنفيذ القانون دون تحيُّز، وهي هنا تعني تنفيذ حكم الله بين الناس سواسية، وهي عدالة متكاملة، لأن التشريع الإلٰهي بالأصل قائم على معرفة الله بحقيقة خلقه وما يضرُّهم وما ينفعهم، فشرع لهم ما يتواءم مع فطرتهم وحقيقتهم وواقعهم وغايتهم من



الوجود، بعكس القانون الوضعي فهو متفاوت ومتقلب من مكان لآخر ومن زمن لآخر بسبب ارتكازه على أهواء البشر، وقد يكون القانون الوضعي مجحفاً ظالماً، أو قاصراً مقصراً بحقوق العباد، ثم إن الخلق سواسية أمام الله، فهو لم يحابِ بالتشريع طائفة من عباده على حساب الأخرى، بينما يراعي التشريع البشري في أعرق التجارب الديمقراطية المعاصرة مصلحة الأكثرية دون الأقلية.

وحيث كان الظلم لا يكون الإسلام، وكثيراً ما يوصي الدين الحنيف أتباعه بالتزام العدل واجتناب الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

وأما السياسة المجردة عن الدين فهي لا تضع هدفاً لها إلا مصالحها الآنية العاجلة، وفي سبيل تلك المصالح تكرس الفساد وتستبيح المحرمات، وقد كان للقرآن موقف عظيم في مجاهدة التخلف السياسي من خلال أمور عدة سنتناولها في هذا المبحث.

أولاً: التنديد بالقيم السياسية الفاسدة:

يظن الساسة وأهل الأهواء أن الحياة لا تصلح إلا بمجموعة من القيم الفاسدة، منها:

أ ـ الظلم:

الظلم هو: (وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه.. والظلم يقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقلُّ من التجاوز، ولذلك يستعمل في الذنب الكبير وفي الذنب الصغير)[1].

---

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة «ظلم».

والظلم وسيلة أساسية لسياسة الطغيان التي ترفض آيات الله تعالى والانصياع لأمره، ومن هنا يبدأ الظلم، فعدم الانصياع للشرع الإلهي هو الخطوة الأولى لاستباحة أموال الناس وأعراضهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف: ١٠٣].

وكثيراً ما يلجأ الظلمة من الملوك إلى ظلم الضعفاء ونهب أموالهم، حقاً إن عيونهم لا تشبع من حطام الدنيا، حتى لو كان المنهوب سفينة صغيرة لمساكين يتكسَّبون منها، قال تعالى في قصة موسى والخضر عليهما السلام: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف: ٧٩].

ومن سنَّة الظلمة من الملوك استباحة القرى والأعراض عند النصر، وكأن نشوة النصر تحلِّل لهم فعل ما يريدون بالآخر، قال تعالى على لسان بلقيس ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل: ٣٤] وهذا الحكم عام لا يستثنى منه إلا الصالحون منهم، الذين يتبعون المنهج الإلهي، وأما من جعل منهجه هواه، وافتقد المرجعية التشريعية الإلهية، فإن سلوكه سيكون سلوكاً ظالماً فاتكاً مدمراً، لأن السلوك الواقعي صدى للرؤى والعقائد التي يؤمن بها الإنسان.

ب ـ الطغيان:

وهو (تجاوز الحد في العصيان... وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: ١١] فاستعير الطغيان فيه لتجاوز الماء الحد)[1].

والطغيان سنة في الأمم المستكبرة مثل عاد وثمود، وفي الملوك المستكبرين مثل فرعون، فهؤلاء تغرُّهم قوَّتهم، ويتطامنون إلى ما اتخذوه من أسباب الملك الدنيوية، ولا يكترثون لنشرهم الفساد في الأرض، بيد

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة «طغى».



أن سلوكهم هذا يجعلهم في مرمى الغضب الإلهي كي يغسل الأرض من رجسهم ويستأصلهم عن بكرة أبيهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ٦-١٤].

ولا يكون العذاب إلا بعد تنبيه ووعظ، قال تعالى مخاطباً موسى عليه السلام: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: ٢٤]، ولكن أنى للطاغية الفاسد أن يعتبر وهو يسأل بغرور: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٣].

ج ـ التكذيب:

وهو أسلوب متخلِّف رخيص يلجأ إليه الساسة لرفض دعوة الله تعالى، ولتعبيد الناس للأوثان الحجرية أو البشرية، وذلك لأن أعداء الرسل لا حجة لهم، لذا فهم يلجؤون إلى التكذيب بالآيات الساطعة والبراهين الصادقة بغية بقائهم في السلطة، قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال: ٥٢]. وهؤلاء الطغاة الدجالون يعلمون أن ما يقوله الأنبياء حقٌّ وصدق، ولكنه العناد من أجل البقاء على التحكم برقاب العباد ومصير البلاد وفق أهوائهم دون مرجعية دينية، قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسرَاء: ١٠٢].

د ـ العلو والتكبر:

العلو والتكبر لا يليق إلا بمن خلق الأرض والسماوات العلا، وأما البشر فهم بحاجة إلى التواضع أمام الخالق المتكبر، ولكن المتخلفين من الساسة يظنون السلطة جلباب عظمة يمنحهم حق التطاول على رقاب العباد، قال تعالى بشأن العلو الفرعوني المزيف الذي دفعه إلى اضطهاد

المستضعفين من بني إسرائيل: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس: ٨٣].

والاستكبار يقود إلى الجريمة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يونس: ٧٥].

ويكون الاستكبار في السلطة السياسية كما يكون في أرباب الأموال أصحاب السلطة الاقتصادية في المجتمعات، وربما صنع الاقتصاد السياسة، ولعل هذا هو السبب في تقديم اسم هارون صاحب المال على فرعون صاحب السلطة في قوله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العَنكبوت: ٣٩].

والاستكبار قد يلفُّ شعباً بعينه أو أمة بأكملها، فإذا بها لا تنصاع لرسول كريم مثل هود عليه السلام، قال تعالى في صفة قوم هود: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فُصّلَت: ١٥].

هـ ـ الإسراف:

السرف: (هو تجاوز الحدّ في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر)[1]، وكثيراً ما يلجأ الساسة إليه، فيبذّدون المال العام في مصالحهم الشخصية، والبذخ والترف، وهذا منتهى التخلُّف السياسي، وذلك أن شقاء الشعب لينعم السلطان أمر ترفضه الشرائع السماوية، لأن الأصل هو أن يكون السلطان في خدمة الأمة وليس العكس، قال تعالى: ﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الدّخان: ٣١].

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة «سرف».



و ـ التضليل:

وهو أن تقود السلطة شعبها بالاتجاه الخاطىء، فتفسد عليه دينه ودنياه، وهي توهمه بأن ما تفعله هو الصواب، وما هو إلا الخطأ المبين، مما يسبب زوال الملك في النهاية، وهو ما فعله فرعون بقومه حيث قادهم إلى الهلاك، وكان الغرق عاقبة الجميع، والعذاب الخالد بانتظارهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ [طه: ٧٩].

ز ـ البطانة الفاسدة:

البطانة من أعمدة الحكم، وعادة ما يبحث السلطان عن البطانة التي تواليه وتنصحه، ولكن كثيراً ما يبتلى السلطان ببطانة فاسدة تغشُّه وتكذب عليه، وهي تدعوه إلى سفك الدماء بغير حق، وتزيِّن له أن عمله هذا هو لمصلحة الأمة، وتدفعه إلى الإجرام دفعاً، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ۝١٢٧﴾ [الأعراف: ١٢٧]. جاء في التفسير: (الواو هنا حالية، أي: أتذره وقومه يفسدون في الأرض، وقد ترك عبادتك؟ وقيل: هي عاطفة، أي: أتدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى تركك آلهتك؟ وقرأ بعضهم: إلاهتك، أي عبادتك. قال الحسن البصري: كان لفرعون إله يعبده في السر)[1]. وعلى أي من الوجهين فإن موسى سواء عدل عن عبادة فرعون أو الصنم الذي يعبده فرعون، فإن هذا أمر تعتبره البطانة فساداً في الأرض، وهي تحثُّ فرعون ليتخذ قراراً استئصالياً بحقِّ موسى وقومه.

واللعبة الفاسدة بين السلطان المتخلِّف والبطانة الفاسدة قد تتكرر على أكثر من وجه، ففي المشهد السابق تظهر البطانة رغبتها في القضاء على موسى عليه السلام، وفي المشهد التالي يظهر فرعون رغبته في ذلك، وكأنه يريد

(١) مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني (٢/٤٥ ـ ٤٦).

أن ينتزع قراراً من البطانة الفاسدة لكي يستأصل موسى ومن معه، وهنا يبدو المشهد السياسي في البلاط الفرعوني وكأن عملية القرار لعبة شد ورخي بين السلطة والحاشية لإبرام قرار سياسي متفق عليه بين الطرفين في هذه اللعبة البرلمانية الساذجة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٦].

ولا ريب أن عملية تصفية نبي كريم مثل موسى عليه السلام تكون موضوع حوار طويل بين فرعون وحاشيته في أزمنة وأمكنة متعددة، وقد نقل القرآن لنا جوانب من ذلك الحوار بما يفي بالغرض، ليعلم الإنسان كيف تدير السلطة الفرعونية المستبدة أمورها، وكيف تتخذ قراراتها التعسفية المتخلفة في دولة الرعب.

ع ـ الهواجس الأمنية (الرعب):

تعيش السلطة الطاغية برعب دائم، فهي في حالة حذر وخوف من رعيتها قبل أي شيء آخر، ومن هذا المنطلق كانت مملكة فرعون في حالة رعب دائم وحذر شديد، ابتداء من فرعون رأس السلطة، ومروراً بهامان الوزير الآمر، وانتهاء بالجنود الذين يمثلون أدوات القمع والتنفيذ، قال تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٦].

ولا تبالي السلطة المتخلفة من أن تحشد كل إمكاناتها لساعة الصفر بقصد منازلة القلة من جند الله الغالبين، قال تعالى يصف استعداد فرعون لمنازلة موسى أمام الشعب في يوم الزينة وهو من أعيادهم آنذاك: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه: ٦٠].

ط ـ الخروج على قوانين الفطرة:

لم يرسل الله نبياً إلا ومعه آية أو معجزة، وأما موسى عليه السلام فقد أُرسل بتسع آيات، قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ



فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: ١٢]، والآيات هي: (العصا، واليد، والسنين، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات، قاله ابن عباس)[1].

ويبدو أن كثرة الآيات كانت بقصد قطع الطريق على فرعون وحاشيته، فلا يدع لهم مجالاً للشك أبداً، ولأن مهمة موسى كانت صعبة جداً، فلا بدَّ له من مجموعة من البراهين الصادقة التي تجعله يواجه فرعون بكل ثقة، قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢]، ولكن فرعون أبى وتولى شأن كل سلطان غشوم ظالم مستبد لا يقبل الحق ولا يعبأ بالبرهان، وإنما يلجأ إلى السيف ليحاكم خصومه، وهذا بسبب الفسق الذي هو في حقيقته خروج عن منطق الفطرة، وذلك أن من شأن العاقل البصير إذا رأى الضوء أن ينتفع به ويهتدي، لا أن يغمض عينيه ويطلب من الآخرين إغماض عيونهم، فهذا هو منتهى التخلف في تعطيل الحواس التي توصل إلى الحقيقة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ [البلد: ٨].

ثانياً: التنديد بسياسة الطائفية:

إن سياسة (فرِّق تسد) سياسة فرعونية قديمة، يمكن تطبيقها على الأعداء والأصدقاء في آن واحد، وقد طبقها فرعون على رعيته، فإذا هو يقسم الشعب إلى طوائف متصارعة، يذوق بعضها بأس الآخر، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

واللعبة الطائفية لعبة سياسية غبية، تولد الحقد والكراهية بين الناس، وتشيع جواً من الكآبة وحب الانتقام لدى الشعب الواحد، فإذا به فئات

(١) مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني (٢/٤٠٣).

متصارعة تتربص كل فئة بالأخرى، وكم من الحروب والمذابح في التاريخ كان سببها الصراع الطائفي؟!

إن الذي يؤمن الملك هو إشاعة العدل بين الناس، وسيادة القانون وتطبيقه على الجميع، وليست سياسة الطائفية التي تدفن النار تحت الرماد، وتعصف بالممالك وأهلها في أقرب أزمة، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: ١٢٣].

إن السياسة الطائفية تدمر الغرض من المجتمع المدني وهو التعارف وبناء الحضارة الإنسانية الراشدة التي تقوم على الإيمان بالله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

إن إذكاء نار الصراعات الطائفية لدى الرعية والتي استخدمها فرعون سياسة متخلفة فاسدة، قد تحفظ للسلطان كرسيه لوقت ما، ولكنها تزرع الكراهية والصراع بين الرعية، مما يجعل الأمن الاجتماعي مهدّداً بالانفجار في أي لحظة.

ثالثاً: رفض الآخر وتصفيته:

رفض الآخر وتصفيته تبدأ بالتهكّم به ونبذه ووصفه بالتهم الكثيرة التي يناقض بعضها بعضاً، وتنتهي بتصفيته جسدياً أو إخراجه من وطنه، وهو ديدن أعداء الله جميعاً، فكم تهكّم أعداء الله بالأنبياء والرسل عليهم السلام وبالصالحين من أتباعهم، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢].

وكم امتدت الأيدي الآثمة لتبطش بالأنبياء والصالحين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: ٢١].

وكم تعرض الأنبياء والرسل عليهم السلام للنفي والتهجير القسري من أوطانهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۝١٣﴾ [إبراهيم: ١٣].

وسياسة رفض الآخر وإرهابه أو إقصائه أو قتله سياسة جاهلة متخلفة تبدِّد طاقات أبناء الأمة الواحدة، وتحرمها من طاقات جميع أبنائها، وتولد الجمود العقلي والفكري لدى الناس، وهي سياسة يرفضها الدين الحق الذي يسمح للناس بالحرية ويدعوهم إلى التعايش السلمي، قال تعالى مشرعاً للحرية الدينية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال تعالى محدداً وظيفة النبي عليه السلام وهي التذكير وليس الإلزام: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى مقرراً حقوق الآخرين من المتعايشين من أهل الأديان الأخرى مع أهل الدعوة ولا يرفعون السيف في وجهها: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [المُمتَحنَة: ٨].

ونعود إلى السياسة المتخلفة لنرى بعض النماذج من رعونتها ورفضها للآخر:

فقد أرسل الله تعالى نبيَّه موسى عليه السلام مؤيداً بالآيات البينات إلى فرعون، فرفض فرعون قبول الحق، وراح يطلق مختلف الدعايات الرخيصة والمتناقضة فيما بينها حول شخصية موسى عليه السلام وذلك بغرض تشويه تلك الشخصية وجعل الناس ينفضون عنها، فمرة يقول عن موسى عليه السلام هو ساحر عليم، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩﴾ [الأعراف: ١٠٩]. ومرة هو رجل مسحور، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ۝١٠١﴾ [الإسراء: ١٠١]، ومرة ثالثة هو ساحر كذاب، قال تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٢٤﴾ [غافر: ٢٤].

وقد عمد فرعون إلى تصفية قوم موسى عليه السلام من قبل ولادته وبعدها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البَقَرَة: ٤٩]، قال ابن كثير: (وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك مصر على يديه. وذلك ـ والله أعلم ـ حين كان جرىء على سارة امرأة الخليل ملكُ مصر، من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها. وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون، فذكرها له بعض أمرائه وأساورته، وهم يسمرون عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل، حذراً من وجود هذا الغلام، ولن يغني حذر من قدر)(١).

وقد حاول فرعون قتل موسى وهو طفل في المهد، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [القَصَص: ٩].

وحاول فرعون تصفية كل من يتبع موسى عليه السلام، حيث نجد السلطة المتخلفة تنقلب على أتباعها من السحرة عندما يتبعون الحق، وتهدِّدهم بأقصى العقوبات، قال تعالى: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٤٩].

كما حاول تصفية موسى عليه السلام ومن معه في الجولة الأخيرة من المطاردة الجماعية عند البحر، قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [طه: ٧٨].

ومن شأن الطغاة تكذيب الرسل، قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ

(١) قصص الأنبياء، تحقيق سعيد اللحام، ص٣٠٦.



﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ [آل عِمرَان: ١١]، وهم يسخرون من دعوة الرسل ويحاولون دحضها عن طريق الشبه والافتراءات، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: ٣٦،٣٧].

ويتخذ الساسة من السجون وسيلة لتغطية عوراتهم، كما حصل مع يوسف عليه السلام الذي زجّ به في السجن بسبب جريمة لم يرتكبها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾﴾ [يُوسُف: ٣٥].

جاء في التفسير: (ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين أي إلى مدة، وذلك بعدما عرفوا براءته وظهرت الآيات، وهي الأدلة على صدقه في عفّته ونزاهته، وكأنهم والله أعلم إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاماً أنه راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك، ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج، حتى تتبين براءته مما نُسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقيُّ العرض صلوات الله عليه وسلامه)(١).

وكثيراً ما يودع الساسة مستشاريهم أو أعوانهم في السجون بسبب شبهة أو ظن سيىء، كما هو حال صاحبي يوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يُوسُف: ٤١].

(قال قتادة: كان أحدهما ساقي الملك والآخر خبازه، قال السدي: كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمّه في طعامه وشرابه)(٢).

(١) مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني (٢/٢٤٩).
(٢) المصدر السابق.

رابعاً: الاستبداد السياسي:

من أسوأ صفات التخلُّف السياسي أن تصبح الدولة ملكاً للفرد، فلا يرى إلا صورته حيث نظر، فهو الدولة والدولة هو، فيصرخ متشدِّقاً كما قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: ٥١].

وهذا المستبد ينكر ألوهية الله تعالى، ويريد أن يثبت للعالم بأنه إله لهم عن طريق التجربة الفاشلة والاستدلال الخادع، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القَصَص: ٣٨].

جاء في التفسير: (يعني أمر وزيره هامان مدير رعيته أن يوقد له على الطين، يعني: يتخذ له آجراً لبناء الصرح، وهو القصر المنيف العالي)[1]، وكأنه قد غاب عن ذاك الطاغية أن في جبال الدنيا ما هو أعلى من صرحه، وأنه لو تسلق أعلى جبل في الدنيا لن يستطيع أن يرى الله، وذلك أن الطريق إلى معرفة الله لا تكون بالرؤية والمشاهدة، وإنما بالعقل والاستدلال.

وقد بلغ هذا المستبد الطاغية الذي ادَّعى الألوهية مبلغاً صار الناس يقسمون به وينسون ربهم العلي الكبير، قال تعالى في وصف المبارزة بين موسى عليه السلام والسحرة: ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٤٤]. ولكن الله نصر رسوله موسى عليه السلام على السحرة وإفكهم، فخرُّوا ساجدين لربِّ العالمين، وآمنوا مع موسى عليه السلام، وهنا يفسر فرعون المستبد إيمان السحرة بالله تفسيراً دنيوياً رخيصاً، مفاده أن ثمة مؤامرة بين موسى والسحرة لعمل انقلاب سياسي، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ

(١) مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني (١٤/٢).



أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأعراف: ١٢٣] والمعنى: (أي تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم دولة وصولة، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والصولة لكم)[1]، ويتوعد المستبد السحرة بأشد العقاب، قال تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: ١٢٤].

وقد فند العلامة ابن كثير التهمة الفرعونية للسحرة وموسى عليه السلام، فقال: (وهذا الذي قال من البهتان الذي يعلم كلُّ فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان، بل لا يَروج مثله على الصبيان، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يَرَ هؤلاء يوماً من الدهر، فكيف يكون كبيرَهم الذي علَّمهم السحر؟ ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم، حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم، واجتباهم من كلِّ فجٍّ عميق، ووادٍ سحيق، ومن حواضر بلاد مصر والأطراف، ومن المدن والأرياف)[2].

ولا تعدم أن تجد في البلاط الفرعوني الفاسد رجلاً مؤمناً، يحاول أن يصحِّح المسيرة وأن يمنع المواجهة بين الحقِّ والباطل، وأن يتدارك الأمور قبل فوات الأوان، ولكن الطاغية يرفض كل حوار ومناقشة، ويصرّ على الكفر والاستكبار، مستبداً برأيه، مستخفاً بقومه وبكل الأعراف والقيم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر: ٢٨، ٢٩]، قال ابن كثير: (وهذا الرجل هو ابن عم فرعون، وكان يكتم إيمانه من قومه خوفاً منهم على نفسه... فلما همَّ فرعون ـ لعنه الله ـ بقتل

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني (٢/٤٣).

(٢) قصص الأنبياء، تحقيق سعيد اللحام، ص٣٣٥.

موسى عليه السلام، وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه، خاف هذا المؤمن على موسى، فتلطَّف في ردِّ فرعون، بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب، فقال على وجه المشورة والرأي)[1].

خامساً: التشريع حق لله تعالى:

إن الله تعالى الذي خلق الخلق هو الذي يشرع لهم ما يصلح أمرهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولكن بعض الطغاة من الملوك الظالمين يطمحون إلى تعبيد الناس لهم من دون الله، فينازعون الله في ربوبيته من أجل أن تنقاد له البشر، ومن النماذج الرديئة في هذا الصدد نمرود الذي ادَّعى القدرة على الإحياء والإماتة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وهذا فرعون يدَّعي الألوهية ثم الربوبية، قال تعالى: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، (قال ابن عباس ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] بأربعين سنة)[2].

ويبدو أن فرعون كان يعبد إلهاً بالسرِّ كما ذكر الحسن البصري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى

(١) قصص الأنبياء، تحقيق سعيد اللحام، ص٣٤٠.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني (٥٩٧/٣).



﴿الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧]. جاء في التفسير: (قال الحسن البصري: كان لفرعون إله يعبده في السر)[١].

وقد ادَّعى فرعون الألوهية بعد ذلك، ثم ترقَّى إلى ادّعاء مقام الربوبية، وقد عاقبه الله على ذلك، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النازعات: ٢٥]، (وعن ابن عباس: نكال كلمتيه الآخرة وهي قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، والأولى وهي قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨])[٢].

وهنا يحسن أن نفرق بين مصطلحي «رب» و«إله»، أما (الرب في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدِّ التمام، يقال: ربَّه، وربَّاه وربَّبَه، وقيل: لأن يربني رجل من قريش أحب إليَّ من أن يربَّني رجل من هوازن. فالرب مصدر مستعار للفاعل، ولا يقال الرب مطلقاً إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات... وبالإضافة يقال له ولغيره)[٣].

وفي القاموس: (ورب كل شيء: مالكه أو مستحقه أو صاحبه)[٤].

(وإله جعلوه اسماً لكلِّ معبود لهم، وكذا الذات، وسموا الشمس إلاهة لاتِّخاذهم إياها معبوداً، وألَهَ فلانٌ يألَه: عبد، وقيل: تأله، فالإله على هذا هو المعبود)[٥].

وعليه، فالرب هو صاحب الخلق والإماتة ونحوها من الأفعال العظيمة، وأما الإله فهو المعبود، وقد اتفق معظم البشر على أن الله ربهم،

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني (٢/٤٥ ـ ٤٦).
(٢) تفسير الكشاف (٤/٦٩٦).
(٣) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة «رب».
(٤) القاموس المحيط، مادة «ربب».
(٥) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة «أله».

ولكنهم أشركوا في الألوهية فعبدوا معه غيره، فلا يصح أن يكون هنالك رب ومعبود في الوجود غير الله، ولكن البشر وقعوا في شرك الألوهية كما أشرك بعضهم بالربوبية أيضاً، وذلك عندما استجابوا لرؤسائهم وقبلوا منهم أن يشرعوا لهم ما لم يأذن به الله، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]. ورد عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، قال: انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «**أليسوا يحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرمونه، ويحلُّون ما حرَّمه فتحلُّونه؟**» قلت: بلى. قال: «**فتلك عبادتهم**»(١).

وعليه نجد فرعون قد تنقَّل من سلطة إلى أخرى، يبدأ وثنياً، ثم يتوق ليكون إلٰهاً معبوداً بدلاً من الوثن، فربما بعد ذلك ليدَّعي بأن له أمر كلِّ شيء، والغرض الخبيث من هذه السياسة الفرعونية الطائشة أن يحتكر كل السلطات بيده، ولا يرى في الوجود غير ذاته وسلطانه، فيشرع للناس ما يريد، ويكون له التسبيح والتمجيد، فهو لا يكتفي بتعبيد الناس له، وأن يكون إلٰههم، بل يدَّعي الربوبية أيضاً، فهو الذي يحيي ويميت في زعمه، وهو مصدر بقائهم ووجودهم، حتى إنه لينكر وجود رب للوجود سواه، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٣].

ومن المعلوم بأن توحيد الربوبية حقٌّ عند سائر الأمم والشعوب، وذلك (كالإقرار بأنه خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والفعال، وهذا التوحيد حقٌّ لا ريب فيه، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية، وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من

(١) رواه الترمذي وابن أبي شيبة والطبراني والطبري والبيهقي وغيرهم. انظر: تفسير الكشاف (تخريج ابن حجر في الحاشية) (٢/٢٦٤).



كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]. وأشهر من عُرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وقد كان مستيقناً به في الباطن، كما قال له موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقال تعالى عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤][(١)].

وأما الرعية فقد كانت مهزوزة جبانة لا تستطيع أن تواجه فرعون، بل هي في استسلام كامل لسياسته الملعونة، وسلوكه الأهوج الطائش، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤].

سادساً: التنديد بالفساد الأرستقراطي:

كثيراً ما يعشش الفساد في القصور الحاكمة، وتكون المرأة أداته الأولى، وهذا من الجهل والتخلُّف الذي يقع به الساسة، فكيف يؤدب هؤلاء رعاياهم ويهذِّبون شعوبهم وبيوتهم مرتع للفساد، قال تعالى حكاية عن واقع بيت العزيز: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: ٢٣].

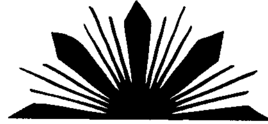
وسرعان ما شاع خبر المراودة في الرعية، قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [يوسف: ٣٠].

وتحاول امرأة العزيز تبرئة نفسها بأن تلقي السبب على يوسف وما آتاه الله من حُسن وجمال، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: ٣١]. ثم تعلن قرارها

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ص٧٩.

القاطع بالاستمرار في طريق الهوى والغي: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يُوسُف: ٣٢]. وعندما انكشف الأمر أمام العزيز، وظهر كيدها وهي تجذب يوسف من قميصه وهو يدفعها، تمَّ تلبيس التهمة ليوسف ووضعه في السجن، وذلك حرصاً على سمعة الأسرة المالكة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ [يُوسُف: ٣٥].

إنه الفساد الذي ينتشر في القصور منذ القدم، وذلك بسبب الفراغ والنعمة التي يرتع بها آل السلطان، فالترف أصل كلّ بلاء، قال تعالى في صفة أهل النار: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الواقِعَة: ٤٥]. وهذا الترف هو الذي يوقع السلطة بالفساد فينكشف أمرها أمام رعيتها ولو بعد حين.





الخاتمة

تكوّن هذا البحث *«معركة القرآن مع الجمود والتخلُّف»* من مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة.

أشرتُ *في المقدمة* إلى أن القرآن جاء للقضاء على التخلف بكافة أبعاده، ولتطوير الحياة الإنسانية في كافة أوجه النشاط فيها، من فكر وحركة وسلوك وشعور، ومن عقيدة وعبادة واقتصاد وسياسة وغير ذلك.

وهذا البحث يأتي لتأكيد فكرة حرب القرآن للجمود والتخلُّف، لنثبت من خلاله أن القرآن كتاب لكلِّ عصر ومصر، وهو الذي يقود البشر إلى الحضارة الراشدة، وينقذهم مما هم فيه من آلام ومشكلات.

وفي *التمهيد* تناولت بعض الأمور ذات الصلة بالبحث، وهي كالتالي:

حقيقة الإسلام، والإسلام دين الحضارة الشاملة، ومحاور حرب القرآن على الجمود والتخلُّف، والتخلُّف الذي تعيشه البشرية في العصر الحديث، وماذا يريد القرآن من البشر.

وفي *المبحث الأول* تحدثت عن التخلُّف الفكري والعقدي، وأنه أسوأ أنواع التخلُّف، وتحدثتُ فيه عن التخلُّف في معرفة الذات الإلٰهية العظمى، والتخلُّف في معرفة الملائكة عليهم السلام، والتخلُّف في الموقف من الكتب السماوية، والتخلُّف في الموقف من الرسل وأتباعهم، والتخلُّف في الموقف من اليوم الآخر، والتخلُّف في فهم القدر وحركة الحياة، والتخلُّف في منهجية التفكير وإعمال العقل.

وفي *المبحث الثاني*، تحدَّثتُ عن التخلُّف الاجتماعي، وذكرتُ أهمَّ مظاهر التخلف الاجتماعي الذي يسود الأمم والشعوب، وبيان لموقف

الإسلام منه، فتحدثتُ عن النزاعات القبلية والطائفية، وتوسع الطبقات المسحوقة في المجتمع، والتخلُّف في دور المرأة ووظيفتها الاجتماعية، والتخلُّف في الخطاب الإعلامي، والتخلُّف الأخلاقي والقيمي.

وفي *المبحث الثالث* تحدثت عن التخلف الاقتصادي، وقد تكلَّم القرآن عن التخلُّف في النظرة إلى المال والفساد الاقتصادي بأشكاله المختلفة، فمن ذلك: التنافس الحر بمعزل عن الأخلاق، وأن المال هدف بحدِّ ذاته، وعدم رعاية حقوق الأمة في المال، ورفض القيم الإنسانية والضوابط الشرعية، وعدم تطوير البيئة واستثمار خيرات الأرض.

وفي *المبحث الرابع* تحدثتُ عن التخلُّف السياسي، وذكرتُ أن السياسة المجردة عن الدين لا تضع هدفاً لها إلا مصالحها الآنية العاجلة، وفي سبيل تلك المصالح تكرس الفساد وتستبيح المحرمات، وقد كان للقرآن موقف عظيم في مجاهدة التخلُّف السياسي من خلال أمور عدة، منها: التنديد بالقيم السياسية الفاسدة، كالظلم، والطغيان، والتكذيب، والعلو والتكبر، والإسراف، والتضليل، والبطانة الفاسدة، والهواجس الأمنية (الرعب)، والخروج على قوانين الفطرة، وذكرتُ تنديد القرآن بسياسة الطائفية، ورفضه لفكرة تصفية الآخر والاستبداد السياسي، وأن التشريع حقٌّ لله تعالى، والتنديد بالفساد الأرستقراطي.

وقد توصلتُ من خلال البحث إلى النتائج التالية:

١ ـ إن التخلُّف هو ظاهرة موجودة في حياة البشر جميعاً، ولها صور مختلفة، فقد يكون التخلُّف عقدياً، أو اجتماعياً، أو اقتصادياً، أو سياسياً، أو شاملاً كما هو الحال في الجاهلية.

٢ ـ إن قوانين التخلف واحدة في المجتمعات، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]. كما أن قوانين الرقي والتقدم واحدة،



وجميعها من سنن الله ﷻ، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٢٣].

٣ ـ إن القرآن الكريم قد حارب جميع أنواع التخلُّف، ودلَّنا على أسباب الرقيّ والتقدُّم، ونبَّهنا إلى ضرورة تجنُّب أسباب الهلاك والتأخُّر، فهو كتاب قائد للحضارة والرشد والحق والخير في كلِّ زمان ومكان إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

٤ ـ إن أسباب تأخر المسلمين في هذا العصر في جانب العلم والحياة والتكنولوجيا وبناء المجتمعات المتحضرة هو بسبب الابتعاد عن مضمون فهم مقاصد القرآن الكريم ومنهجه ومدرسته، فقد كان هنالك قصور معرفي في فهم القرآن، وتمَّ تداوله وقراءته للبركة وللآخرة وليس لتوجيه دفة الحياة الدنيا وتقويم مسارها.

٥ ـ إن أعداء المسلمين الذين يرمون القرآن الكريم بمفترياتهم ويجعلونه سبباً لتأخر الأمة هم إما جهلة لا يعرفون ما في القرآن من قوة وقدرة وشمول وآفاق واسعة ومعارف تستوعب الحياة كلها، أو يعلمون ذلك ولكنهم يريدون من المسلمين الابتعاد عن مدرسة القرآن حتى يبقوا فريسة سهلة لكلِّ كاسر أو مفترس يريد نهب ثرواتهم، وتشتيت جموعهم، وكسر ضلوعهم.

٦ ـ إن الحضارة المعاصرة يمكن لها أن تقدِّم للناس السعادة والخير لو اهتدت بمنهج القرآن الكريم، وتداركت ما فيها من خلل وثغرات من خلال اتِّباعها لهداه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



المصادر والمراجع

- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**؛ لأبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
- **الروض الأنف**؛ للسهيلي، دار الفكر، الطبعة الثانية.
- **السيرة النبوية**؛ لابن هشام، دار الفكر، الطبعة الثانية.
- **شرح العقيدة الطحاوية**؛ خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ دمشق، الطبعة الثامنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- **القاموس المحيط**؛ للفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- **قصص الأنبياء**؛ لابن كثير، تحقيق: سعيد اللحام، دار مكتبة الحياة ـ بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- **الكشاف**؛ للزمخشري، صححه مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- **مختصر تفسير ابن كثير**؛ للصابوني، دار القرآن الكريم ـ بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م.
- **مشكاة المصابيح**؛ للتبريزي، بتحقيق: الألباني، المكتب الإسلامي ـ دمشق، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**؛ محمد فؤاد عبدالباقي، المكتبة الإسلامية ـ استانبول ١٩٨٤م.
- **المفردات في غريب القرآن**؛ للراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة ـ بيروت.

